كحل العين

محمّد علي الشويهدي

كحل العين

قصص قصيرة

مؤسسة
الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

كحل العين

محمد علي الشويهدي

مؤسسة
الانتشار العربي

ص . ب . 5752/ 113 ر . ب . 2070 1103
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى (يناير 2002)

الإهـداء

إلى أمـي

منـاني مصطفى الباجقني

التي ما غابت يوماً إذ كانت دوماً

في القلب والعين والخاطر، وإلى حين لقاء.

محمد

بنغازي 5 ـ 4 ـ 2001

كحل العين

قدري، قيل لي، الرحيل دوماً، في كل الأوقات، منذ الصغر، أكاد أستقر، أعتاد الأشياء، تألفني الأمكنة، أرتاح قليلاً، لكنني أرحل، مرغماً، أتوق إلى الخلاص دون جدوى.

قدري، قيل لي، وجعي، ذاك الذي في داخلي، لا يسكن أبداً، إن فعل، فلكي يفاجئني بألم أكبر، بوجع أكثر، لكي يعذبني بقدر كاف لأن أهرب منه به إلى حيث لا أدري.

ـ كفاك ترحالاً يا حبيبي.

كانت تقول.

وترنو بعينين صغيرتين كحيلتين جميلتين لا تكادان تتسعان لكل ما تمور به أعماقها من حب وشوق وعتاب، فلا أحتمل أن تنوء عيناها بكل هذا الدفق الهائل من المشاعر والأحزان، ولعل جل ما كان يقلقني دوماً ذاك الحزن المختبئ في أعماق العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين لكنني كنت لا ألبث حتى أتجاوزه في معظم الأحيان انبهاراً بمشاعر الفرح والحب التي كانت

تغمرني بها حبيبتي كلما لقيتها، أيضاً، لم أكن أريد أن أفسد سعادة الدقائق القليلة السانحة بعد غياب طويل.

وأستسلم للصوت الحاني يداعب أوتار القلب المرهق:

ـ جئت يا حبيبي فلا تغادر.. كفاك ترحالاً وكفاني عذاباً.. ابق.

أجيب العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين دون أن أنبس بكلمة:

ـ أيتها الأغلى.. يا حبيبتي.. لا تغضبي.. فما جئت من الأقاصي لأوجعك.. جئت يا حبيبتي كي أغفو على صدرك طفلاً هدّه التعب، دمرته المعاناة والترحال والغربة، لا يكاد يذكر أمسه، لا يكاد يعي يومه، لا يكاد يتبين آفاق غده، جئت يا حبيبتي ككل مرة كي أغمض عيني وأسكن إليك فأرتاح، أغتسل، أتوضأ، أتطهر، أتكحل، أصلي في محراب حبك ركعتي عشق، ألوذ بك شأن طفل لجأ مذعوراً إلى حضن أمه إثر ضنك وفزع لتحتويني كل مشاعر السكينة والأمان.

وأبدو في العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين كما طفل أغضب أمه لكنه يصبو إلى أن يفترّ ثغرها عن ابتسامة تعني في لغة الحب الأكبر عفواً يكتسح بكل جلال دفقه جميع الذنوب والأخطاء، وتعيدني بالفعل طفلاً صغيراً، تقعدني على الحصيرة إلى جوارها، تتجرد ذاتي من كل الطقوس التي تحاصرني بعيداً

عنها، أحس في التو بصفاء وسكينة رائعتين، وكأن كل الجراح قد اندملت، كل الأحزان قد تلاشت، كل الأوجاع قد سكنت، كل الرؤى قد اتضحت، كل الآفاق قد رحبت خضرة وفرحاً وخيراً ونماء.

وبدا لها أن العائد من السفر يتوجع إذ وجدتها تقول في حنو مهادن:

ـ اتكئ فأنت متعب.

وتربّت على رأسي، تتحسس جبيني، تهمس:

ـ رأسك ساخن.. أمريض أنت؟.. قبل أن تجيء.. لا أدري.. قلبي أخبرني.

ـ لست مريضاً.

أقول لها ثم أستطرد:

ـ إنني مرهق.

وأحس أن الإرهاق وحده لا يكفي لاستدرار ما يجب أن أتزود به من حب فأدعي المرض كي أتوسد حنانها وأغفو، وأخلع عني فزعي وأحزاني، همومي وتعاستي، أغفو كما طفل تضيء ملامح وجهه الصغير ابتسامة كانت طوتها سنوات الغربة تحت ظلال تجاعيد الوجه الكالح في أقاصي أعماق اليأس، لكنني أخشى الفزع الذي يضنيها كلما بدا في الأفق أذىً دنا مني أو كاد، فأمتنع.

كان يروق لها دوماً أن تلاطفني بعد فورة الغضب والعتاب إدراكاً منها ربما لحجم معاناتي، أو ربما كانت تبتغي مواساتي، ذلك لأنني كنت الراحل أبداً خارج الحب والبيت والوطن.

ـ آحك.. هه.

وتتدفق الكلمات من أعماق الذات دون عائق، دون خوف، دون ترتيب، دون تردد، دون إمعان في التفكير، تتدفق الكلمات المختبئة في الأقاصي، فرحة طليقة، حرة، مبتهجة، فأخالها تصيب منها العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين، تضيقان فأدرك أن الإصابة موجعة، تتسعان حتى تبدوان كما صغرهما فأعرف أن الكلمات مبهجة، لكنني في الحالتين كلتيهما كنت لا أكترث، لا أبالي، كما لو كنت أتحدث إلى نفسي، فقد كنت أتحدث إليها حبيبتي.

قالت ـ تناولني كوب الشاي الأخضر ـ:

ـ لو لم تكن أنت أنت.. الأحب الأغلى.. لتصورت أنك تخدعني.. فأنت تجيء، تغدق علي من الحب ما لم يغدقه أحد، أتمنى عليك أن تبقى، فالحياة أنسة يوم من يوم، لكنك تتزود وترحل، تغادر إلى دنيا الله الواسعة ككل مرة وتتركني ألوذ بالخواء وحيدة.

كانت تتحدث في لوعة، كنت أتلقى في صمت، بدت في العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين دمعتان، قبضت بيمناها

البضة الصغيرة طرف ردائها، مسحت الدمعتين، دفعت إلى شفتيها بابتسامة، قالت بصوت مشوب بأعراض رغبة مكبوحة في البكاء:

ـ اشرب الشاي.

ليتك أيتها الأغلى تدركين أن الخواء قدري وليس قدرك.. صدقيني يا حبيبتي.. كل أرض الله تلك ذات الاتساع غير المحدود بكل ذاك الضجيج والأضواء والحياة ليس سوى خواء بدونك، أما الامتلاء بكل ما هو رائع وجميل فهو هنا حيث أنت في «زنقة العويلة» ذات المشاعر البكر والأحاسيس العفوية والحكايا الحميمة والسلوك غير المبرمج والحب وكل الحياة.

غالبتها دمعتان أخريتان، عز على نفسي أن تبكي حبيبتي، غالبتني عبراتي، فما جئت أيتها الأغلى إلا لأحتويك بكل الحب، ما جئت إلا لأحيطك بكل الفرح، ما جئت إلا لأختلس من عبث الوجود لحظات أنس وسعادة وسرور، ما جئت إلا لأتكحل بصفاء عينيك الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين وسماحة وجهك الوضّاء ودفق حبك القوي رغم ما أحدثته سنوات العمر العديدة من وهن، ما جئت لأبكيك حبيبتي، جئت..

وخشيت أن يغالبني البكاء، قلت مواسياً ومداعباً:

ـ يا أعز الناس أنت من قال لي ذات يوم إن رزق الرجل في قدميه. ومنذ ذاك اليوم..

قاطعتني بضحكة مبللة بالدموع قائلة:

ـ أنت أبرع من يخلط الجد بالهزل.. ليس على الأرض أحد أقرب مني إليك.. لكنني لا أفهمك..!

أسعدني كثيراً أن تضحك حبيبتي، فضحكتها التي تفجرت من الأعماق حباً وصدقاً وسعادة رفعت عن كاهلي أعباء قلقي وتوتري منذ أبكيتها في اللحظات الفائتة.

سألتها:

ـ هل تشكّين لحظة واحدة في حبي لك.؟

أجابت وكأن لم تكن تتوقع أن أباغتها بسؤال مباشر كهذا:

ـ لا.. لا.. أبداً.. هذا سؤال مرفوض.. السؤال في حد ذاته يدعو إلى الشك.

قلت:

ـ حسناً.. هذا الذي قلته يدعوني إلى الامتناع عن مواصلة السؤال.

قاطعتني فيما كانت تغرز عينيها الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين في عيني:

ـ أجيبك لأنني أدرك سؤالك اللاحق.. لكن ما جدوى الكلام..؟

ونزعت عيني من عينيها خشية أن أبكي، وبذلت جهداً

عصبياً خارقاً كي أبدو كما لو أنني لم أنتبه.

أضافت:

ـ ابق هنا إلى جانبي.. لا تغادر.. لا ترحل..

قلت:

ـ حسناً.. سيكون الرحيل الأخير.. سأعود إليك.

قاطعتني في عصبية:

ـ لا تقل الرحيل الأخير.. هذا فأل سيئ.

وأغمضت العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين وانصرفت كلية إلى تمتمة كانت على ما يبدو دعاءً لم أتبينه ثم قالت بصوت مسموع بعد أن مسحت براحة يمناها صفحة وجهها:

ـ تمشي وتجيء طيب.

ـ اتفقنا على أن أغادر إذن.. ليس ككل مرة.. سأعود عاجلاً.. لن أغيب طويلاً.. عِدِيني أنت الأخرى أن لا ترحلي.

قالت:

ـ هذا أنت.. تخلط دائماً الجد بالهزل حتى إنك كثيراً ما تربكني إذ لا أتبين إن كنت جاداً أم أنك تهزل.

صمت كلانا برهة، أضافت:

ـ إلى أين يا حبيبي يمكن أن أرحل..؟! اكتفيت في حياتي بزيارة بيت الله وقبر رسول الله.. اطمئن.. لن أرحل.. لن

أغادر «زنقة العويلة» سأبقى هنا في انتظارك.. حتى تعود فلا تتأخر.. عدني أن تفعل.. أعدك أن أبقى يقظة.. أتنصّت طرقاتك المميزة على باب البيت.. وقع قدميك في السقيفة.. كحتك المزمنة.. رائحة ثيابك المشبعة بالتبغ.. عافاك الله. صدقني.. كلما تعود كل مرة يخبرني قلبي أنك في طريقك إليّ قبل أن تصل الباب... شيء في داخلي يهبّ فرحاً.. يدعوني إلى التنصّت حتى إذا ما فعلت وجدتك تطرق الباب.. تعبر السقيفة.. تتقدم.. تنحني.. تحتضنني فأحتضنك.. تبعث في كياني الحياة.. يتدفق الجسد العجوز حيوية وشباباً.. انهض بك إليك جذلة.. لا أدري ماذا يعتريني عندما تجيء. لكنك تمضي.. تغادر.. ترحل.. عدني ثانية أن تعود قريباً هذه المرة..

أعدك أن أنتظرك حتى تعود..

كانت كلماتها تتدفق قوية صادقة واثقة حميمة، أتلقاها عطشاً متلهفاً نهماً فرحاً سعيداً بالأمل الدافق في اليوم اللاحق، غافلاً في سهو بشريّ ساذج عن عبث الزمن وخفايا الغد.

همست في العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين:

ـ تماماً.. كما يقولون.. لن أقول وداعاً بل أقول إلى اللقاء.

غالبتْ رغبة جامحة في البكاء على غير ما كانت تفعل في

لحظات الوداع في وقت سابق، إذ كانت تنهض مُقدمة على وداعي مبتهجة بالأمل في لقاءٍ.. آت.

تساءلتْ:

ـ لن تخلّ بوعدك؟

أجبت:

ـ سأعود.. وأنتِ؟..

ابتسمت:

ـ أعدك.

ورحلت بعد أن تكحلت بما يكفي لرحلة واحدة حباً وبهجة وطمأنينة وسكينة وانتماء وحياة، مخدوعاً في اليوم اللاحق في سهو بشريّ ظاهر عن حقيقة أبدية نلتف حولها في غفلة وعمى تماماً كما ثور الساقية، ذلك لأنني أُخبرت قبل أن ينفد زادي بوقت قصير أن أمي حبيبتي عجزت عن البر بوعدها فرحلت كي تغيب عن عيني إلى الأبد، فلم يعد هناك من يخبره قلبه أنني قادم إليه، ولا من يتنصّت طرقاتي المميزة على باب البيت أو وقع خطواتي في السقيفة أو يتوق إلى رائحة ثيابي المشبعة بالتبغ، لم تعد هناك عينان صغيرتان كحيلتان جميلتان أجد فيهما كل ذاك الذي كنت أجده، خذلت «زنقة العويلة» أمي فعندما أريد لها أن ترحل لم تتشبث بها، تركتها ترحل، ورغم أنني لم أكن موجوداً حين رحلت أمي إلا أنني أثق أنها رحلت في كبرياء فلقد كانت

عفيفة تأبى أبداً أن تكون ضيفاً غير مرغوب على أحد حتى لو كان هذا الأحد هو الحياة.

قلت أخاطب نفسي إذ امتنعت بعد رحيل أمي عن البوح:

ـ هكذا إذن.. بين رحيل ورحيل تكتمل فصول المهزلة.

وطفقت أجوب كل الطرقات، أسبح في كل البحار، أحلق في كل السماوات، أرنو بعينين كسيرتين نحو الأفق الواسع بحثاً عن تلك التي كانت، عن كل ذاك الذي كان، دون جدوى، فتطحن الغربة بضراوة مني الأعماق، تطبق على أنفاسي، تعبث بكل الأشواق، يحتويني الخواء في كل الأنحاء، ألوذ بالضوضاء، ألجأ إلى الأماكن، أتفرس الأشياء، تبهرني الأضواء، تختلط الرؤى، تتداخل الصور، أعاود الرحيل، لعل وعسى..

الفراشـة

ربما كانت آخر أيام الربيع، قد يكون أيضاً أول أيام الخريف، فتداخل فصول العام والذاكرة الواهنة لم يعودا قادرين على الجزم، لكن المؤكد هو أن الخريف كان وافداً وشمس ذاك اليوم كانت واهية بينما كانت تهب بين الحين والآخر رياح باردة.

كنت أجر قدمي في تردد صوب غاية مجهولة، فساعات اليوم طويلة وساعات الليل مؤرقة والقراءة صارت عادة ذميمة فقصيدة البيت الواحد تتكرر بأساليب مختلفة وأحاديث كل يوم أمست معادة ومملة والأفكار تراوح بين شد وجذب وكأنها أمواج بحر بين مد وجزر.

بدت على الرصيف الآخر كراسي مصفوفة إلى مناضد ورغم أنها كانت خاوية فالساعة لم تتجاوز العاشرة صباحاً والجلوس إلى المقاهي في ذلك الوقت المبكر عادة غير رائجة إلا أن الكراسي المصفوفة ـ على أية حال ـ كانت تعلن عن وجود مكان يمكن أن أركن إليه.

خطوت في اتجاه الرصيف الموازي، وجدتني في مواجهة باب المقهى مباشرة، بدا المقهى عبر الباب الزجاجي المتسخ كئيباً وحركة النادل الذي كان يحمل فنجاني قهوة إلى عجوزين صامتين بطيئة، دفعت الباب وخطوت إلى داخل المقهى فتعثرت قدماي بكوم من أعواد الحطب كانت مهملة على ما رأيت أو ربما معدة كي يقذف بها إلى الموقد فتحترق وتتحول بعد برهة إلى رماد.

استوقفتني فكرة تحول أعواد الحطب المهملة إلى رماد وساءني عدم اكتراث النادل فانحنيت ألتقطها عوداً عوداً وأكومها في زاوية المقهى حتى لا تؤدي إلى تعثر قادم آخر وحين انتهيت منها انتبهت إلى فضول العيون التي كانت تحاصرني.

ـ السلام عليكم.

لم يرد أحد تحيتي، جلست إلى منضدة حيث كنت أقف بجوار كوم أعواد الحطب، جاءني النادل، كان قميئاً عابساً، وقف صامتاً، دفعت إلى عبوسه بابتسامة، ظل واقفاً صامتاً عابساً، اعتدلت على الكرسي الخشبي:

ـ فنجان قهوة بدون سكر.

استدار ومضى قبل أن أكمل:

ـ كوب ماء... كوب ماء لو سمحت!

كان يجلس إلى المناضد الخشبية المتهالكة عدد من الرجال

كبار السن متشحون بمواصفات المتقاعدين بعد سنين مضنية من العراك مع الحياة الوظيفية بعيون منطفئة وأجساد مترهلة وأخرى نحيفة جافة، الوجوه في الغالب كالحة مبذورة بشعيرات بيضاء في مواقع مختلفة، تلتقي كثرة تجاعيدها وتنوع تعرجاتها والثياب الرثة والمشهد في مجمله لم يكن يدعو إلى البهجة، ففكرت أن أنصرف لكنني خشيت أن يقدم النادل بفنجان القهوة وربما كوب الماء فلا يبدو لائقاً أن أنصرف عنه.

قال أحدهم يحدث عجوزاً آخر بصوت خافت في حديث بدا أنه كان استطراداً:

ـ منذ عام.. منذ عام لم يتصل.. نسي على ما يبدو أنني أبوه.

طفح وجه العجوز المنصت شبه ابتسامة ربما حاول أن يخفف بها من مرارة عقوق ابن رفيقه، لكنه تأوه في حسرة، قال:

ـ دعه وشأنه.. إنني منذ توفيت أم الأولاد انصرفت إلى شأني.. لم أعد أعير اهتماماً لأحد.. من شاء أن يجيء فليجئ ومن شاء أن يختفي فليختف.. للكعبة رب يحميها.. هه..

رغم أن حديث العجوزين كان خافتاً إلا أنه على ما يبدو كان مسموعاً أو ربما معاداً مكرراً متوقعاً من رفاق المقهى، ذلك لأن عجوزاً يجلس إلى منضدة أخرى قال موجهاً حديثه للعجوزين بصوت حاول قدر جهده أن يغلفه بالمرح:

ـ الأولاد صغاراً كما الكتاكيت، نأويهم في العش،

نطعمهم، نحميهم، نقيهم قيظ الصيف وصقيع الشتاء حتى إذا ما نبت الريش واشتدت الأجنحة طاروا في كل الاتجاهات وبقيت أنت في العش وحيداً.. هه.. هاها..

ظل الصمت قابضاً على المكان وظلت الوجوه عابسة والعيون نصف مفتوحة يراودها النعاس أو ربما هي تسبر أعماق الماضي القصي حين كان الجسد في عنفوانه والعقل في توهجه يقود الحياة في اتجاه الغد الأروع، وضجيج الأولاد يطارد الهدوء ويصنع المرح والفرح والسعادة، لكن صوت ارتطام فنجان القهوة بسطح المنضدة وتبدد جزء من كوب الماء على ملابسي شرخ الصمت، وبدا الأمر طبيعياً حتى إنه لم يدع النادل إلى الاكتراث فالاعتذار وكأن ما حدث أمر معتاد لا يستوجب أي رد فعل، فأغاظني، رفعت عيني إلى عينيه أؤنبهما لكنني وجدته شاخصاً بهما إلى كوم أعواد الحطب.

المشهد استبدل غيظي بدهشة عارمة إذ بدت فراشة زاهية الألوان تحوم حول أعواد الخطب المكومة على غير بُعد مني وهو أمر غير طبيعي ولا معتاد ذلك لأن زمن الفراش هو الربيع ومواطئه هي الزهور اليانعة في الحدائق النضرة، أما وقوعه على هذا النحو فهو بالتأكيد ضد ناموس الطبيعة وقواعد الكون وتوافق الأشياء، لكن الفراشة الرائعة كانت تحلق وتحط على أعواد الحطب في حركة منتظمة شبه راقصة حتى إن نغماً هادئاً بدا منسجماً وإيقاع حركات الفراشة تناهى إلى أسماع الرجال فانتبهوا

للمشهد واتسعت حدقات عيونهم معبأة بالدهشة والانبهار.

غمرت المكان نسمات عطرة واحتواني ما يشبه الخدر اللذيذ حين بدت هي بوجه طفولي ملائكي وعينين سوداوين مخفورين بحاجبين مرسومين بريشة فنان أعظم تشعان بهجة وفرحاً وحياة، وثغر لا يتعدى حجم حبة كرز حتى إذا ما انفرج عن ابتسامة بدت حبات البرد بيضاء صغيرة متناسقة كما اللؤلؤ على جيد مرمري مسيجاً بقبلة متناغماً وقوام رشيق مرن مكسو بثوب حريري شفاف فضفاض لا يعوق إيقاعات الرقص المتنامية وإن كشف بين حين وآخر عن ساقين بلوريين.

كانت الفراشة تحط بخفة على عود حطب ثم عود وعود آخر وتعود لتحلق على غير بعد من أعواد الحطب فتلامس هذا العود بأحد جناحيها ثم تنحرف لتلامس عوداً آخر بالجناح الثاني فلا تلبث حتى تحط فتستقر على عود لبرهة ثم تعاود التحليق المنتظم حول أعواد الحطب في حركة دؤوبة بدت تماماً كما الرقص توافقاً والأنغام الهادئة الشجية.

فركت عيني عدة مرات ذلك لأن أعواد الحطب ذات اللون الرمادي صارت تميل إلى اللون الأصفر المشوب بلون رمادي يكاد يندثر، خشيت أن تكون أشعة الشمس التي اشتدت قد كست أعواد الحطب بأشعتها الذهبية فهيئت لعيني الكليلتين وخيالي الجامح رؤية غير حقيقية لا تتعدى نطاق خداع البصر، لكن اللون الرمادي ما لبث حتى اندثر نهائياً وصار لون أعواد الحطب أصفر

يكاد يخضوضر على نحو واضح حائلاً بقوة دون احتمالات الخداع والزيف.

بدا انصرافي صوب أعواد الحطب انتزاعاً لوجودي من المكان، ذلك لأنني لم أنتبه إلى ما كان يجري في عين المكان، فالموسيقى لم تعد هادئة سلسة إذ تعالت في إيقاعات صاخبة راقصة وهي بكل فتنة الأنثى وبراءة البكر تتهادى بين الرجال الذين أضاءت وجوههم الكالحة ابتسامات شرهة تعوقها دواعي الوقار لكن حفيف الثوب الحريري الذي كان يلامس يد هذا وقدم ذاك وما يصاحبه من نفاذ نسمات عطرة أتى على كل دواعي الوقار، فنسي ذاك العجوز تماماً شأن ابنه العاق وخلع عنه معطفه ووقف مقاوماً انحناء ظهره وشرع يصفق بقوة ضاحكاً متناغماً وإيقاع الموسيقى وخطواتها نحوه في مداعبة رقيقة مبهجة.

لم تعد الوجوه كالحة بينما اختفت التجاعيد مغمورة بالفرح والمرح والانبهار، حتى النادل الذي كان يقف شاخصاً مبهوراً غادرت وجهه العابس كآبة ذاك الحين فتلألأت عيناه بالفرح وأضحى يتمايل في محاولة جادة للرقص يحول دون نجاحها ثقل وزنه ووهن ساقيه.

كان المشهد بهياً وكانت هي بكل ذكاء الأنثى ودفق البكر تغمر رجلاً بعينه بدفقة حب حتى يخالها اصطفته دون غيره من الرجال فيلامس طرف ثوبها خلسة لتمنحه هي ابتسامة وتنصرف إلى آخر فتعاود ذات الأمر ثانية حتى تحلق كل الرجال حولها

ليخترق النادل الحصار إلى وسط الحلقة يراقصها بإيقاع غير متناسق وإيقاعات الأكف المتوحدة التصفيق بقوة تضاهي عنفوان الشباب.

فوجئت بأعواد الحطب وقد انتصبت مخضرة وتفرّعت عنها أغصان صغيرة نامية تكاد تنثر وروداً وأزهاراً ورياحين عطرة بألوان زاهية كما ألوان الفراشة الدؤوبة المثابرة، تلك المخلوقة الرائعة المباركة التي جاءت في زمن غير الزمن إلى مكان غير المكان لتؤكد على أن مشيئة الطبيعة قادرة على صنع الحياة في كل الظروف وأن اليباس يمكن أن ينبت أعواد الحطب متى غمرت بدفق الحب والفرح والمرح.

كان ضجيج الرجال يعلو والموسيقى تصخب والرقص يشتد، وهي، ذات الوجه الطفولي الملائكي والعينين السوداوين المخفورين بحاجبين مرسومين بريشة فنان أعظم وثغر لا يتعدى حجم حبة الكرز، تغمر الرجال بالرقص والحب والمرح فبدا المشهد من وراء ألواح الزجاج للمارة ملفتاً وكأنما حفلٌ شبابيٌّ صاخبٌ راقصٌ يقام في غير المكان وغير الزمان، لكن أحداً لم يلتفت إلى كهولة الراقصين إذ بدوا في خفة وحيوية وعنفوان الشباب وفرح ومرح وسعادة ربيع العمر، إلا أن الرجال انتبهوا على التوالي إلى فضول عيون المارة الذي اخترق ألواح الزجاج إلى المكان فاستوجب الأمر الوقار وعادوا تباعاً إلى مقاعدهم يتدفقون حيوية وفرحاً وبهجة وإقداماً.

غصون أعواد الحطب أنبتت وروداً وأزهاراً ورياحين وغمر المكان طيب نافذ ينبعث منها في كل الأرجاء وبدت الأعواد سيقان أشجار تسمق تحت أشعة الشمس في اتجاه الحياة، لكن الفراشة زاهية الألوان كانت قد اختفت تماماً كما فعلت هي إذ حلقت في أجواء المكان تلاحقها عيون الرجال متوهجة سعادة وإطراءً وعرفاناً ثم تلاشت فاختفت.

غادرت المكان أعبر الطريق إلى الرصيف الآخر منتصب القامة أدق الأرض بقدمين قويين وقد اعترتني حيوية ونشوة دافقتان مقبلاً على غدي بفرح وانشراح وابتهاج بينما كانت أشعة الشمس ساطعة زاهية والنسمات هادئة عطرة تغرق الوجدان بكل مشاعر الحب والتفاؤل والأمل، فتأكد لي أن اليوم ربيعي وأن الخريف لا يمكن أن يقدم أبداً.

هكذا على ما أجزم كان شأن كل الرجال وهكذا على ما أذكر رفعت عيني إلى عنان السماء متضرعاً أن تصطفى تلك الفراشة الرائعة المباركة حور عين وأن يصبح المكان مزاراً يؤمه الناس عرفاناً بالإعجاز.

الساعة

ـ تنفسْ بعمق.

ـ . . . .

ـ بعمق أكثر.

ـ . . . .

ـ حسنا . . إجلس.

ـ . . . .

ـ تنفسْ بعمق . .

ـ . . . .

ـ إنهض . .

نزع الطبيب السماعتين عن أذنيه، قاس ضغط الدم، نقر ركبتيه بقادوم مطاطي، فتح فمه: أضاءه بمصباح صغير، حدّق في تجاويفه، رفع جفنيه، جفناً بعد الآخر، فحص العينين، ثم:

ـ ارتد قميصك.

جلس الطبيب إلى المكتب الصغير يكتب الوصفة، أشعل هو النار في لفافة، سحب كمية كبيرة من الدخان، أحس بها تلهب رئتيه، نفث الدخان، رفع الطبيب إليه عينين متضايقتين، وعى فعلته، اعتذر:

ـ عفواً.

ـ . . .

أطفأ اللفافة، جلس على الكرسي الصغير في مواجهة الطبيب، انتهى الطبيب من كتابة الوصفة، نزع عن عينيه عوينتيه الطبيتين، قال:

ـ صحتك جيدة.

فرح هو، ليس مريضاً، أوهام، مجرد وساوس من عمل الشيطان، لكن، تدارك فرحه، قال للطبيب:

ـ إنني مرهق طيلة الوقت، لأقل جهد عضلي، تطقطق عظامي، كذلك أنفاسي تتلاحق. .

قال الطبيب:

ـ أنت مدخن شَرِه. . ثم لا تنس أنك تجاوزت الأربعين.

اختفى فرحه، انقبض، ذعر هائل ترتجف له أوصاله، الإحساس الحاد بالزمن يسري فيه كله، مؤلم، جارف، مباهج ما

قبل الأربعين مضت، سنوات العنفوان توالت حتى انتهت، لا يحتاج إلى من ينبهه إلى هذه الحقيقة لأنها تظل همّه على نحو دائم.

دون أن يعي ما يفعل أوقد النار في لفافة، رفع عينيه نحو الطبيب، نفث الدخان، تضايق الطبيب، لم ينتبه هو، قال الطبيب في لهجة غاضبة:

ـ أنت تدخن كثيراً.

انتبه إلى ما عناه الطبيب لكن حاجته إلى اللفافة كانت ملحّة، قال:

ـ معذرة.

ـ حسناً.. صحتك جيدة.. هذه الوصفة تحتوي على أدوية مقوية فقط.

ـ لكن هذا الإنهاك.. هذا الـ...

قاطعه الطبيب مداعباً:

ـ شيخوخة مبكرة.

ـ أف.

ـ معذرة.

نهض، قبض على الوصفة، ابتسم مجاملاً الطبيب:

ـ شكراً.

مضى، احتواه الشارع، الحياة في الشارع تبدو متدفقة رائعة، تضج بالعافية والتفاؤل، نسمات باردة منعشة تداعبه، واجهات المحال التجارية تدعوه إلى اختيار الأجود حتى يبدو رجلاً مكتمل الأناقة، خطواته تمضي به في تؤدة دون وجهة محددة لكنه تحسس ذقنه فتذكر مدى القلق الذي تحدثه الشعيرات البيضاء المتلصصة من بين شعيرات ذقنه.

صحف ومجلات قديمة، رائحة كريهة تنبعث من قدمي جاره كلما انحنى هو لالتقاط صحيفة أو مجلة، تهب أحياناً نسمة عبر الباب الزجاجي المواربة فتنتشر في أرجاء المكان رائحة الصابون وعطر ما بعد الحلاقة، أحس أنه تورط في الانتظار الكريه، حدق في ساعة يده، تجاوزت الخامسة، كانت الثالثة عندما تورط في انتظار الطبيب، ساعتان مهدورتان، ضايقته دقات الساعة في معصمه، تمنى أن يهشمها بكعب حذائه، قاوم الفكرة، وضع لفافة في فمه، قرر أن يغادر المكان، سمع الحلاق يناديه:

ـ تفضل.

استوى على الكرسي في مواجهة المرآة، بدا له رأسه أكبر مما كان يتصور، بدا له أيضاً وجهه مظلماً كئيباً، حاول أن يفتش عن ذاته الحقيقية داخل الرجل الغريب الشاخص أمامه في المرآة إلا أن الحلاق لف المنشفة حول عنقه فاستند هو إلى الكرسي وأغمض عينيه.

رغم ضنك العيش حينذاك، بدت له تلك السنوات القصية بالغة البهجة، مشحونة بالألفة والمودة، فالأصدقاء كانوا أشقّاء وأكثر، والجيران والجارات كانوا آباء وأمهات وإخوة أيضاً، الحياة يحوطها الأمان والطمأنينة، الحب كان حباً حقيقياً ينبض به القلب صادقاً في عفوية، لكن كل هذا أوغل في البعد والانحسار، وأحس بمشاعر الغربة تحاصره، فكل شيء صار يباع معلباً مشمولاً بكل المواصفات عدا الصدق، عالم يسوده الذعر فيلهث مفجوعاً على نحوٍ موصول خلف سراب.

تأوه، قال الحلاق معتذراً:

ـ عفواً.. لقد جرحتك.. إن جلدة وجهك ذات حساسية شديدة.

أنعشه عطر ما بعد الحلاقة، بدا له وجهه مضيئاً على نحو ما، شعر بشيء من الرضا تألقت به عيناه، أحس أنه تمادى في الاكتئاب وأن الحياة لا يمكن أن تكون بكل هذا السوء الماثل في ذهنه، استوى على الكرسي، قال:

ـ احلق شعر الرأس.. من هنا.. من هنا أيضاً.. اغسله ورتبه جيداً.

عندما احتواه الشارع من جديد لم يكن مكتئباً ذلك لأن حيوية دافقة كانت تبهجه على نحو ما، بدت خطواته شابة، عيناه ودودتان تحتضنان المارة في ألفة، تطيلان النظر إلى المعروضات

بواجهات المحال التجارية، تتألقان بإحساس رائع مفعم بالتفاؤل والمرح، لكن دقات الساعة ما لبثت حتى عادت تدوي في معصمه، تلاحق نبضات قلبه، تضم أذنيه، تقلقه، يتلاشى في دَوِيّ دقاتها ضجيج الشارع ودفق الحياة، يشخص بعينيه إلى عقارب الساعة، عقرب الثواني يجري، يلهث وكأنه مطارد من قوة غاشمة، الساعة قاربت السابعة، أربع ساعات مرقت في غمضة عين، ضاقت أنفاسه، عاودته تلك الرغبة الجارفة في تهشيم ساعة يده، قاوم الرغبة، أدارت سبابة وإبهام يمناه عقارب الساعة إلى الوراء، صارت الخامسة، طفقت تدير العقارب إلى الوراء بسرعة، صارت الرابعة، الثالثة، الثانية، الواحدة، راقته الفكرة، ارتاح، قرر أن يداوم المقاومة، تحسس وريقة الوصفة الطبية في جيبه، استخلصها، مزق الوريقة، قصاصات رماها، أدركه شيء من الاطمئنان.

توقف أمام واجهة محل، تفحص المعروضات، تنبه لخياله يشخص في زجاج الواجهة، أنيقاً يبدو، وسيماً، أضاءت وجهه ابتسامة، إلى جواره وقفت صبية تتفرج على المعروضات، فوجئ، ارتعش، داوم التحديق في زجاج الواجهة، بدا خيال الصبية ملاصقاً خياله على لوح الزجاج، توالت ضربات قلبه في خفقات سريعة، قرر أن ينسحب، استدار، لامس ساعده ساعد الصبية، رطباً مكتنزاً كان، ارتبك لكنه التفت يعتذر، العينان في خضرة زرعٍ بكر، الشعر مجدول على الكتفين مصقول لامع،

الفستان مشدود على الخصر والبطن، مبذور على زرقته السماوية نجوم وأقمار، الوجه سمح التقاطيع بدا مرسوماً بريشة فنان عاشق في لحظة وَجْد.

ردت على اعتذاره الرقيق بابتسامة ودودة احتوتها عيناه في امتنان، خطا جذلاً، تداخلت الرؤى، أعادته تلك اللحظات الوضيئة، يتدفق شباباً، يتفجر مرحاً، ينام ظهراً، عصراً، يقوم ليلاً، ينام فجراً، يصحو صباحاً، يعمل، يعمل، يعمل، يصنع حباً، يعشق صبية، يلهو:

ـ سبحان من صوّر!!

بمحاذاته تمشي فالتفتت، ابتسمت، تباطأت، تساءلت في براءة:

ـ نعم يا عمي الحاج..؟

حجر ناري في أعماقه قذف، التهب فأحرق كل نبتة تنامت واخضوضرت، صمت، تجاوزته الصبية، مضت، تضاءلت الرؤية أمام عينيه، تداخلت المرئيات واهتزت، كاد يتهاوى، استند بظهره إلى جدار، شخص بعينين جاحظتين إلى دفق الحياة صاخباً في الشارع فيما كانت ساعة الميدان تدق سبع دقات متوالية.

واجهت عينيه المتخاذلتين بعينين متوهجتين، شيء آخر غير الحب يسكن العينين الجميلتين، شيء له بريقه، له سحره، له إشعاعه، يبدو في عنفوانه، عارماً، عنيفاً، لكنه رائعٌ عظيمٌ.

انتهت من انتعال حذائها العسكري، شدت الحزام حول وسطها، بدت في زي المقاومة شامخة، واثقة، احتضنت غدّارتها في حب:

ـ قد نلتقي.. وداعاً.

استدارت، خطت صوب الباب خطوتين، ناداها:

ـ حبيبتي. حبيبتي.

لم تجبه، ناداها ثانية:

ـ أمل.. يا أمل.

توقفتْ، التفتتْ، طأطأ رأسه، بدا ضعيفاً، مغلوباً، لا يقوى على فعل شيء.

ـ نعم.

ـ المرأة لا تقاتل يا حبيبتي!.

ـ وأنت لا تقاتل.. وللوطن رب يحميه..!!.. هه.

تركته ومضت، ينوء نهض، شيء في أعماقه يطبق عليه بضراوة، الأرض تميل، المرئيات تهتز، الرؤى كالحة، ضبابية أحياناً، غريب هو عن كل شيء خارجه، ما عداها هي، كانت فيه، تقبع في أعماقه بعينين أنثويتين ساحرتين، ودودتين، لكن، ها هي تجتثّ من داخله، تصير خارجه، فيصير هو أشد إحساساً بالغربة، بالضياع، الفراغ الخانق يميته، يدمره، فيتيه، يرى، يسمع، يستوعب، لكنه لا يكترث، لا يتأثر لا شيء يهم.

ـ لعلني أجده!!

قال في خاطره، طرق الباب، أجابته أم ناصر:

ـ لحظة.

فتحت العجوز الباب:

ـ أهلاً.. أين ناصر؟!

أجاب:

ـ جئت أبحث عنه.

ـ اعتقدت أنكما معاً في المعسكر.

صعق، ناصر أيضاً التحق بالجيش، أمه العجوز فرحة،

فخورة، لا تخشى على وحيدها الموت، تظنه التحق هو الآخر.

ـ كيف حالك يا ولدي؟!

سألته العجوز.

أفاق، بدا كأنه يبتسم، هكذا حاول أن يفعل، منهكاً كان والإحساس بالغربة يشتد على نحو مريع.

ـ الحمد لله.

أجاب العجوز أم ناصر..

قالت:

ـ يبدو أن تمرينات اليوم كانت شاقة، لا يهم يا ولدي، لا يهم، ناصر أيضاً يعود منهكاً، لكن لا بد أن تتعلموا كيف تقاتلون العدو وإلا فمن يحمينا..؟! إن الثورة..

وقالت أم ناصر كلاماً كثيراً عن الوطن، عن الثورة، عن الانتماء، بدت تلك العجوز، أم ناصر الأمية البسيطة تماماً كأستاذ في علم السياسة، تتحدث ببساطة، بمنطق، بحرارة، بصدق، في لباقة، ودودة فخورة، وهو يغيب، يتيه بعيداً ثم يعود، يلتقط كلمة، جملة، ابتسامة، ليغيب ثانية، يتيه، يرحل إلى الأبعد، يوقظه حماس العجوز، يتوق إلى الخلاص:

ـ حسناً.. مع السلامة.

استوقفته العجوز:

ـ لكن.. قل لي.. هل التقيت ناصر في المعسكر اليوم..؟!

طأطأ رأسه، أجاب:

ـ لم ألتحق بعد.. لم ألتحق بعد.

تصبب عرقاً، أنفاسه تضيق، إحساس عارم بالتفاهة يستحوذ عليه، تمنى أن يهرب، قالت العجوز معاتبة:

ـ إييه.. عيب يا ولدي.. حتى البنات التحقن.

خارت قدرته على المقاومة، فرّ هارباً، عاده ذلك الوجه الحبيب بعينين متوهجتين، شيء آخر غير الحب يسكن العينين، حاول أن يهرب بعينيه من عينيها، تلك الحبيبة التي ربما هجرته إلى الأبد.

التقى ناصر، فرحاً كان، عناقه، رائحة العرق تنبعث من الملابس العسكرية، غريبة عن أنفه، حدق في عيني صاحبه ناصر، ذهل، عينا ناصر متوهجتان، شيء آخر غير ذاك الود يسكن عيني ناصر، شيء له بريقه، له سحره، له إشعاعه، تماماً كذاك الشيء الذي يتألق في عينيها، عارماً، عنيفاً، رائعاً، عظيماً.

سأله ناصر:

ـ ألم تلتحق بعد يا سليم.؟!

لم يجب، تيبس حلقه، أضاف ناصر:

ـ إن العدو يحشد قواته على الحدود.

هزّ سليم كتفيه، غير مبال أبداً، ابتسم، قال:

ـ دعنا من هذا الآن...

قاطعه ناصر:

ـ هذا هو الأهم الآن..

صرخ سليم:

ـ يا ناصر.. اسمع..

قاطعه ناصر محتداً:

ـ لا.. اسمع أنت.. على هذا النحو.. أنت لا تتخذ موقفاً من الثورة.. أنت تتخذ موقفاً سلبياً من الوطن، منا جميعاً يا سليم، فالقتال..

أصابه في الجرح، الجرح الذي لا يكاد يندمل حتى ينكأ بكلمة، ليتألم، يتألم، صرخ:

ـ افهمني يا ناصر، إنني لا أتخذ موقفاً سلبياً من الثورة، لا أتخذ موقفاً سلبياً من الوطن، ذلك لأنني أعشق الثورة حتى العبادة، أحب الوطن حتى الاستشهاد، لكنني.. لكنني.. لا أدري..

احتوت عيناه عيني ناصر، ذلك الشيء الخارق الذي يتألق في عينيه، هو ذاته الذي يتألق في عينيها، ذلك الشيء العارم، الرائع، يبهره، يستحوذ عليه.

قال ناصر في ود:

ـ إن الانتماء إلى الثورة، إلى الوطن، يبدو رائعاً بالفعل، عندما ينبعث من الوجدان أحاسيس ومشاعر، لكنه بالتأكيد، يبدو أروع وأمتع، أدعَى إلى الأمان، إلى الطمأنينة، عندما نصيّره فعلاً حيّاً حقيقياً، تخط الهامش يا سليم في اتجاه الثورة، في اتجاه الوطن، ستنصهر جزءاً في الكل، فتصير كبيراً رائعاً عظيماً.

ساد صمت.

لم ينطق سليم بكلمة.

قال ناصر:

ـ حسناً.. إن العجوز في انتظاري.

ـ ستجدني في المقهى.

اعتذر ناصر:

ـ لا أعتقد، أن أكثر ما تبتهج له العجوز عندي هو أن أحدثها عن التمارين في المعسكر، سأفعل، أتعشى، أنام، وداعاً.

تركه ومضى يدق الأرض بقدمين قويّتين، جرّ سليم قدميه ومضى صوب المقهى، جلس:

ـ قهوة مضبوطة.

المذياع يصدح نشيداً حماسياً، الجماعات المتحلقة حول الطاولات تصخب:

ـ التحقت اليوم . . من الغد سأقيم في المعسكر .

ـ التحقت بالمقاومة . . الأولاد التحقوا جميعاً بالجيش .

ـ سنقاتل . . سنقاتل . .

ـ الله غالب . . مضطرون للقتال .

ـ اص . . اص . . يا جماعة . . الصوت يا أخ . .

ـ ماذا هناك؟

ـ بيان عسكري . .

صمت مفاجئ .

المذيع يعلن :

ـ بيان عسكري رقم واحد . . أغارت قوات العدو على القرى الواقعة داخل حدودنا، قتلت الأطفال والشيوخ والنساء، لكن قواتنا المسلحة تصدت لغارة الغدر بلهيب نيرانها . . و . . اختلط البيان بالغضب .

أصوات . . أصوات . . أصوات . .

الكلاب . . القتلة . . العدو . . الشيوخ . . نيران . . موت . . غدر . . الوطن . . الثورة . . قواتنا . . قاتلوهم . .

اغمض عينيه، تراءت له مئات الوجوه تستغيث، وجوه أطفال، شيوخ، صبايا، مئات العيون الفزعة، تستنجد، دماء، أيد مبتورة، عيون مفقوءة، عمارات تتهاوى، مصانع تحترق،

مزارع تشتعل، شهب تلقى في أعماقه، تحرقه من الداخل، الألم يمزقه، الثورة المعشوق، الوطن المعبود، الثورة تغتال، الوطن يدمر، المذياع يزمجر نشيداً بالأصوات، يصنع الهتاف الهادر مع الجموع المتدفقة، آلامه تتبدد، قوة خارقة تتفجر في كيانه، يبدو أقوى، أشد، أمتن، تعانق عيناه كل العيون في حب، كل العيون تتوهج، تتألق بذاك الشيء الرائع، ذي البريق الخاص، الإشعاع الخاص، السحر الخاص، غربته تتلاشى، الرؤى واضحة، فرح حقيقي يدغدغ أعماقه، خطا خطوة، خطوتين، اجتاز الهامش، بدت لعينيه عيناها ترنوان، في حب تتألقان، عينا ناصر، عينا أم ناصر، عيون كثيرة، ودودة تحتضنه، تحنو عليه، توهجت بالحب والثورة، تألقت بذاك الشيء الرائع ذي البريق الخاص، السر الخاص، الإشعاع الخاص، مضى يدق الأرض بقدمين قويتين، واثقاً، شامخاً، صوب العمل العظيم.

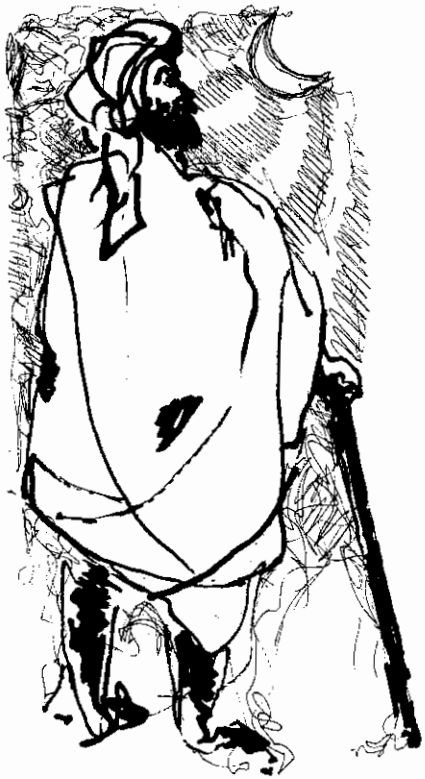

زيارة ولد الشيخ

زيارة ولد الشيخ

ولد الشيخ كان رجلاً ضخم الجثة، جاحظ العينين، قاسي الملامح، بطيء الحركة، رثّ الثياب، لا يتكلم إلا نادراً فإن فعل فلا ينطق بأكثر من كلمة أو كلمتين، لكنه يمتلك قدرة غير طبيعية على الإنصات المصحوب بابتسامة غير مغمورة بالفرح، فلا يظهر أكثر من أسنانه التي لا تلبث أن تختفي عندما يزم شفتيه فجأة، ويُحدث بعينيه حركة عصبية تدعو إلى قلق الكبار ورعب الصغار.

ـ من هو ولد الشيخ؟! من أين جاء ولد الشيخ؟! أين يقيم ولد الشيخ؟!

لم يكن يعنينا نحن الصغار في تلك السنوات القصية الأمر كثيراً، أما كبار «سيدي حسين» الذين توافدوا على الحي في أعقاب الحرب العالمية الثانية من جميع أنحاء البلاد، فلم يكونوا ليأبهوا، ربما حرصاً على أمور إن بدت قد تسؤوهم، فلكل وافد على «سيدي حسين» قصة لا يجوز الخوض في غمارها أو

الحديث في تفاصيلها أو الغوص غير المستحب في دقائقها، إذن، لا ملاذ للوافدين على «سيدي حسين» سوى الصمت والحذر، منعاً للضرر، ومقاومة سلبية عفوية لواقع الحال، لكن الفضول قد يطبق عليك في قسوة، فتلح على عقلك رغبة شرسة في المعرفة، حينها قد يصدّك الكبار، إلا أنهم قد يخبرونك بصوت هامس مشوب بحذر شديد:

ـ لا أحد يعرف اسم ولد الشيخ!!

فولد الشيخ لا يحمل إثبات هوية ولم يحدث أن أعلن عن اسمه، إن أنت ناديته محمداً أجاب، وإن أنت ناديته بغير هذا من الأسماء، أجاب أيضاً، أما إذا أصررت على معرفة اسمه، انفرجت شفتاه عن حركة تبدو كما الابتسامة، وأحدثت عيناه حركة عصبية تدعو إلى القلق عادة، والرعب أحياناً، لكنه أبداً لا يجيب.

يقولون إن في هذا الرجل شيء لله، الأمر الذي يعني أنه أحد أولياء الله الصالحين، المغمورين الذين إن كشف سرهم ماتوا فوراً، واختفوا من على سطح الأرض إلى باطنها، لكن هذا القول على ما علمت بعد ذلك جوبه بغضب شديد من إمام مسجد «سيدي حسين»:

ـ لم يحدث أن رأيت ولد الشيخ في الجامع، ولد الشيخ لا يصلي، ولا يؤدي فرض الله، أراهن على أنه لم يحدث أن

اغتسل منذ ولدته أمه.. هه، اسأله عن قواعد الإسلام الخمس الواجبات.. اطلب إليه أن يسمعك سورة واحدة من القرآن الكريم.. درويش.. مخبول.. أبله.. ربما.. أما ولي فلا..

ورغم أن إمام المسجد بدا وكأنه يخشى على موقعه كإمام من رجل على علاقة أوطد بالله إلا أن مداخلته لقت قبولاً لدى الحضور باستثناء أحدهم:

ـ لم يحدث أن ضبط ولد الشيخ مخموراً أو زانياً أو سارقاً أو غير ذلك..

ضحك إمام المسجد في سخرية بينة ثم قال:

ـ هذا ما ينقص ولد الشيخ فعلاً!!

استقر الرأي في «سيدي حسين» على أن ولد الشيخ ليس أحد أولياء الله الصالحين، ثم ثار جدل واسع على مدى ليالٍ عديدة حول تصنيف ولد الشيخ ما بين درويش.. مخبول.. أبله، وفي جميع الأحوال لم يكن النصر حليف فريق ضد فريق، فتم الاتفاق في النهاية بنسبة ضئيلة على تسمية الرجل بولد الشيخ، فإن لم يكن هو الولي الصالح المغمور فلا أقل من أن يكون ابن أو حفيد ولي صالح.

كان من طباع ولد الشيخ أن يختفي عدة أيام ثم يعود للظهور فجأة، وعندما سلّط كبار «سيدي حسين» صغاره على الرجل، فلاحقوه ذات عشية بغية معرفة مكان إقامته، ظلّ يجوب شوارع

المدينة عدة ساعات، حتى هلك الصغار وعادوا خائبين فيما اختفى ولد الشيخ تلك المرة شهراً كاملاً.

عندما عاد بعد ذلك ذات يوم يجر قدميه المسبوقين بمكنسته العتيدة، برقت عينا مختار «سيدي حسين» بفكرة لم تكن واردة على الإطلاق:

ـ سأعرف من هو ولد الشيخ؟!

ـ كيف؟!

ـ أتوجه إلى البلدية، وأبحث في كل الأوراق إلى أن أعرف كل شيء عنه.. لن أغيب طويلاً.. انتظروني.

عندما عاد مختار «سيدي حسين» في اليوم التالي، بعد أن غاب طويلاً، بدا مهزوماً، فلم ينطق بكلمة واحدة، وعندما سُئل بعد انتظار عن ولد الشيخ.. أجاب:

ـ لا توجد ورقة واحدة تخص ولد الشيخ في البلدية.. الرجل يتقاضى أجراً يومياً غروب كل يوم. الحرس البلدي لا يعرف أكثر من أنه ولد الشيخ.

بعدما اتصلت أحياء بنغازي، وكبرت المدينة، وعبِّدت الطرق، وشيدت البيوت الحديثة، وارتفعت العمارات شاهقة، وازدهرت الحياة، انتبهت قلة إلى غياب ولد الشيخ، لكن الأمر قوبل بعدم اكتراث، ثم بسخرية بالغة، وذات حين بحدس يرقى إلى مستوى الحقيقة:

ـ ولد الشيخ مات!

طيف ولد الشيخ لاحقني كثيراً في أوقات متقاربة، ثم متباعدة، فقدر الرجل الغامض كان الصمت والترحال، عاشه وحيداً، فقيراً، كادحاً، لا يعبأ، ولعله قضى نحبه بعد كل سني عمره دون أن يترك أثراً من ولد أو عقار أو صدقة جارية إلى يوم الدين.

عادني طيفه ذات يوم، بعد سنوات عندما صحوت فجراً، كنت حينها أحدّق في سقف الغرفة حيث أنام، أتفحص الموجودات بعينين دامعتين، ذلك لأنني لم أتعرف على موقعي في هذا العالم من كثرة الترحال، لم أستطع أن أتذكر في أية مدينة أنا موجود!! أغرفة في أحد الفنادق هذه أم ضيف على صديق خارج الحدود؟! في مجمل الأحوال وحيد أنا، خارج داري تطحن الغربة والوحشة والترحال ذاتي.

عزّ على نفسي ما انتهيت إليه، داهمتني رغبة جامحة في البكاء، فبكيتُ من أجلي، ومن أجل ولد الشيخ الذي مات دون أن يعنى أحد بمعاناته القاتلة.

حاولت أن أغفو مرهقاً مهزوماً بعد ذلك، لكن طيف ولد الشيخ تجسّد قائماً بجوار مرقدي، خطا نحوي، مصوباً في اتجاهي تلك الابتسامة غير المغمورة بالفرح، محدِثاً بعينيه تلك الحركة العصبية المؤدية إلى القلق، ثم ما لبث أن توجه إلى

حذائي يفرغ ما احتواه من أتربة الطرق الوعرة في كفيه الضخمين، ويصوّبه أرضاً في اتجاه باب الغرفة المُوصد ويختفي.

نهضتُ مفزوعاً، وبعدما خلعت الدقائق البطيئة اللاحقة عني فزعي، خلوت إلى ذاتي، وقد طهرتها الدموع فجراً، فانتهيت إلى أن ولد الشيخ جاء يخبرني أن الترحال قدر، كما الوحدة، لا يجدي معهما إلا الصمت.

انتعلت حذائي، حملت حقيبة أسفاري، فتحت باب الغرفة، رحلت وحيداً صامتاً.

الوجه الآخر

الأحلام البهيجة الشابة، الخفقات البكر المتفتحة الدافقة، الرؤى الجميلة الرائعة، بعينين دامعتين رأتها تتلاشى، تنتهي، تموت في أعماق الذات، اغتالها هو في لحظة بكلمة قالها، انطلقت كالإعصار الجارف، أتلفت كل شيء، كل شيء.

امتدت أصابع اليد الصغيرة البضة تتحسس البطن الذي تكوّر فتحرك الجنين في أحشائها، ارتجفت، احتوت البطن بكلتا يديها تحمي الحياة الكامنة في البطن البكر، فالخطر المحدق قاتل، والجنين المختبئ فيها يحتمي بها منها، منه، من هذا العالم الزاخر بالمتناقضات والألم.

ضعيفة هي، لا حول لا قوة، أمام رجل اغتال كل الأشياء الجميلة، أحرق كل شيء، بكلمة، في لحظة.. وحيدة اعتراها خوف جارف، أحست بحاجة قاهرة إلى صدر حبيب تلقي عليه برأسها، تغمض عينيها، تتخفف من الأحزان والوجع، تجد عنده

تلك الطمأنينة الوادعة التي تبدو في توّها أشد حاجة إليها من أي وقت مضى.

داهمتها رغبة في البكاء، أبت أن تنهار تماماً، أن تتحول بكلمة في لحظة إلى مجرد كائن ضعيف يبكي، كلمة قالها هو في لحظة ـ ربما ـ لم يكن خلالها هو.. «هو». ابتسمت في مرارة، ذلك لأنه لم يكن في تلك اللحظة هو «هو» الفتى اليافع الذي كان يحبها، يعبدها، يمطرها بكلمات الوجد، يغمرها بتلك العاطفة المتدفقة:

ـ أحبك.. أحبك كثيراً.

عبارة مألوفة، سمعتها في الإذاعة، في الأغاني، في المدرسة من زميلاتها، قرأتها في القصص، لكنها هذه المرة بدت جديدة، ذات سحر خاص، ذات نغمة متميزة، حركت في أعماقها أشياء جميلة، دفعت بالدماء حارة في عروقها، تلاحقت دقات قلبها، احمرت وجنتاها، طأطأت رأسها، تمنت أن تنتهي اللحظة.

ـ وأنتِ يا حبيبتي هل تحبينني؟!

جفّ ريقها، تيبست شفتاها، تخشّب لسانها، تلاحقت دقات قلبها بشدة، كادت تفقد توازنها فتقع.

ـ أجيبيني يا حبيبتي.

قال، فأجابت:

ـ عيب . . عيب . . عيب .

استدارت فزعة، تأكدت أنهما وحيدان، هي التي نطقت إذن، لكن الكلمات خرجت منها دون أن تنطق، لم تتكلم، لسانها قطعة صغيرة من الخشب، الشفتان متيبستان، مضطربة هي، خائفة .

ـ لا تخافي يا حبيبتي . . الحب ليس عيباً، أنت شابة، مثقفة، متعلمة، أنت لست جدتك، أنا أيضاً لست جدي، نحن يا حبيبتي أبناء اليوم، من حقي أن أختار فتاتي، أحبها، أصيّرها زوجتي، أنت أيضاً يجب أن تفعلي .

فرّت هاربة، اختبأت في حجرتها، استلقت على الفراش، دغدغتها مشاعر فرحة لذيذة، أغمضت عينيها، بدا هو رائعاً، ودوداً، عاشقاً، متفتحاً، يلوح كأمل جميل، كغد بهيج، تحياه في حب . . حب . . حب .

رفس الجنين جدار البطن من الداخل، أفاقت، انتابها ذعر من أن تنزلق قدماه فجأة إلى هاوية، بدت أكثر خوفاً على الجنين، الخطر قاتل، الكلمة التي انطلقت في لحظة تتربص بالوليد البكر لتخنقه، تميته، تميت كل شيء، كل شيء .

تمنت أن تفر وتهرب بعيداً تنجو بالجنين، تلوذ ببلد غريب، لا يعرف الناس فيه لغة الكذب، لا تلبس الشهوة فيه رداء الحب حتى تشبع الرغبة فيسقط الحب لتبدو الأشياء عارية حقيقية، كريهة، مؤلمة .

عاودتها الرؤى فبدا أمامها عاشقاً، لا يؤمن بغير الحب، متلهفاً كان في ذاك اليوم، يجيد لغة الكذب:

ـ لا بد لحبنا أن ينتصر.. حبنا أقوى.. أكبر من أن يهزم.. أبوك جيل.. أمك جيل.. كذلك أبي وأمي.. أما أنا وأنت فجيل آخر.. يملك القدرة على التفكير.. يملك القدرة على القرار.

ـ أؤمن مثلك بما تقول.. لكن أهلي يرفضونك تماماً.. يرونك بغير عينيَّ المحبتين!.. لا أستطيع أن أفعل شيئاً. لا أستطيع.

ـ بل تستطيعين.. أنت على حق.. فالحب حق.. كل ما يعوزك هو الشجاعة.. شجاعة اتخاذ القرار.

ذاك اليوم تسللت من البيت خلسة، مضت في خطوات مرتجفة، تلاحقها نداءات الأب والأم أن لا تفعل، غيبت النداءات في أعماق الذات، قاومت، فالحب أكبر، حياتها تخصها هي وحدها وهو، لا سواه، يمكن أن يكون زوجها.

طرقت باب بيته، دخلت منكسة الرأس، استقبلتها أمه، شيء ما كان يشوب الاستقبال، أحست أنها مهزومة، ضعيفة، ترتكب عاراً، تهين الأب والأم والأخ والأخت، تمرغ كل أولئك الذين يحبونها في الوحل، تدوسهم بقدميها، تحبهم جمعاً، بكت، طمأنتها أمه، ظلت تبكي لكن كل الأمور تمت بسرعة:

ـ سيدي القاضي . . اخترت هذا الرجل زوجاً لي .

زغردت النساء، بدت الزغاريد مفرغة من الفرح، جاءت المهنئات ليتفرجن، يتضاحكن، يتهامسن :

ـ هذه البنت التي . . .

مرض أبوها، أمها امتنعت عن استقبال الزائرات، أخوها هرب «بالفضيحة» في إجازة إلى الخارج، ولا شيء يهم، تقاوم، تصمد، تلقي برأسها على صدره وتبكي تستمد منه قوة، يلاطفها، يقبلها، يهمس في فمها ولها :

ـ أحبك وسأظل أفعل إلى الأبد .

ترخص أمام حبه كل التضحيات، الزمن قادر على مداواة كل الجراح، الأب يقبل، الأم ترضى، كل شيء يتحول إلى مجرد قصة حب رائعة تروى، حقق فيها الحب مشيئته، انتصر، لكن، الأيام تمضي والبطن يتكور، الحب يخبو، الحنان يغيب، والحياة رتيبة، مملة أحياناً، فالحبيب صار زوجاً، ينطوي على نفسه كثيراً، يشرد أثناء الحديث، مهموم ربما بالخطيئة الجاثمة فوق كتفيه، يقاوم بقليل من الصبر، بقليل من العقل .

ـ ولد أم بنت تريدني أن ألد . . ؟!

قالت مداعبة .

انتفض، جحظت عيناه اللتان كانتا عاشقتين، بدا كأنه

يموت، بدت اللحظة دهراً والصمت رهيب مدمر، شاءت أن تتجاوز اللحظة، همست مداعبة مرة أخرى:

ـ أمك عاينت بطني.. أكدت أنني سألد بنتاً. وستكون جميلة مثل...

نهض واقفاً، عيناه اللتان كانتا عاشقتين ظلتا جاحظتين، تحركت شفتاه، صرخ:

ـ إن أنت ولدت بنتاً.. سأقتلها.. سأقتلها.

فزعت، دمعت عيناها، تلاحقت الرؤى أمام ناظريها، انبعث صوت في أعماقها يتساءل في أسى:

ـ لم؟... لم؟...

أجاب في غضب:

ـ البنت أم.. البنت أم..

معاناة الطفل جبران

معاناة الطفل جبران

إثر يوم عمل شاق، طرقت الباب عائداً في الظهر، جائعاً أتوق إلى وجبة دسمة، منهكاً أسعى إلى إغفاءة القيلولة، لكن طرقاتي تلاشت في صرخات ابني الطفل، فتوالت على الباب طرقاتي بعنف حتى تخللت الصراخ الحاد إلى زوجتي، فتحت الباب، دلفت إلى السقيفة:

ـ ما به؟!

ـ لا أدري..!

أجابت ثم مضت إلى المطبخ، خطوت إلى حجرة الأطفال، كان منبطحاً يصرخ، توقف عن الصراخ، رفع رأسه، وجهه الصغير كان مبللاً بالدموع متورداً بالغضب، ابتسمت له في ودّ، ظل يواجهني بعينين صغيرتين متحديتين، انحنيت، رَبَّتُّ على رأسه بيدي، مسحت الدموع بأصابعي عن عينيه وخديه، قبّلته، رجتني عيناه أن أفعل شيئاً لأجله، قبّلته مرة ثانية، ابتسمت لعينيه الصغيرتين المعبأتين بالأمل.. هدهدته، وشوشته مداعباً:

ـ ما بك يا جبران؟! ماذا تريد يا حبيبي؟!

ظل صامتاً، طفل صغير عاجز عن النطق، لا يقوى على الكلام، بثبات يغرز عينيه الصغيرتين المتحديتين في عيني، نهضت، تجهّم الوجه الصغير المتورد بالغضب، بدا عابساً متحدياً، استدرت، مضيت، في إثري انطلق صراخه قوياً حاداً، التفتُّ صوبه فطفق يدق الأرض بقبضتيه الصغيرتين، تركته يفعل، إلى حجرة نومي مضيت، استلقيت على السرير، انتظر أن يُنادى للغداء، أتغدى، أنام، أستريح، ظل صراخه الحاد يَخِزُ أعصابي المرهقة، احتملت، قلت في خاطري، لقد اخترت أن أكون ربّ أسرة، لا بد أن أحتمل.. لكن صراخه الحاد المتصل استنفد صبري، صرخت أناديها:

ـ اسمعي.. اسمعي

لم تجب، عاودتُ نداءها، لم تجب، نهضت غاضباً، مضيت إلى المطبخ حيث تقف:

ـ ناديتك مراراً..

ـ لم أسمعك!.

ـ دعي الغداء.. اذهبي إليه.. أسكتيه.

ـ حاولت معه قبل مجيئك.. لم أفلح.

ـ أعصابي مرهقة.. لا أحتمل هذا الصراخ.

ـ احتملته أنا منذ الصباح حتى الآن.. لم لا تحتمله أنت دقائق..؟!.. ثم إنه لا بد أن تتغدى.

تركتها يائساً، تنبهت إلى أنني أحمل للصغير حلوى، فرحت، هرولت إلى الكيس الورقي الصغير الذي كنت أحضرته، مضيت إليه، توقف عن الصراخ، رفع رأسه، وجهه الطفولي في تورده، في عينيه تحد وعناد، بدا متحفزاً، يود فعل أي شيء، جلست إلى جواره، مددت يدي إليه بقطع الحلوى، ظل يحدّق في عينيّ، يرجوني ويتحداني في آن واحد، تمنيت أن أفهم على وجه التحديد ما يريد، لم أستطع أن أفعل، دفع يدي بيده في غضب، انتثرت قطع الحلوى التي كان يحبها على الحصير، استفزّني، امتص ضعفه الطفولي غضبي، عدت ألاطفه، يئس على ما يبدو، خبا ذلك العناد في عينيه، انكفأ على وجهه، شرع يصرخ بصوت بدا لي أقلّ حدة لكنه أوفر ألماً، أحسست به يواجه ظلماً أكبر من طفولته، تأثرت لأجله، فكرت ملياً أحاول أن أتعرف على ما يرفضه، عادني وجه أمي العجوز يرشد زوجتي ذات يوم:

ـ لا يصرخ الطفل إلا إذا كان جائعاً أو متسخاً أو مريضاً.

فرحت، هي إحدى ثلاث إذن، نهضت كي أمضي إلى زوجتي فأخبرها، فوجئت بها تقف خلفي مباشرة سألتها:

ـ هل تناول وجبته؟

ـ رضعتان.

شعرت بخيبة أمل عالجتها بالصبر، فكرت قليلاً، اعتصرت رأسي براحتي حتى تبدو ملاحظاتي ذات قيمة أكبر لدى زوجتي، حدّقت في عينيها، أهيئ نفسي للحديث، بادرتني:

ـ ثم إنه اغتسل وارتدى ملابس نظيفة، فإنني أرجح أن يكون الطفل مريضاً، ربما يكون مصاباً بمغص شديد..

اكتسحتني تماماً، أتت على الثلاث حالات التي كان يمكن أن أستعرض من خلالها معلوماتي في تربية الأطفال، طأطأت رأسي، لكنني ما لبثت حتى هرولت إلى صندوق الصيدلية المنزلية، تناولت زجاجة ماء غريب المضاد لمغص الأطفال، عدت إليها حيث تقف منتشياً بالانتصار:

ـ حسناً.. أعطه ملعقة صغيرة من هذا.

ـ أعطيته ملعقتين قبل حضورك.. لم يجدِ..

رميت بالزجاجة جانباً، جررت قدمي إلى حجرة النوم، صراخ الطفل يلاحقني حاداً، عجز قاهر يتملكني، رغبة جنونية في الفرار من البيت إلى أي مكان يجتاحني، جوعي، تعبي، يقاومان الرغبة في استماتة، لحقني صوتها:

ـ الغداء جاهز.. هيا.

جلسنا إلى الغداء، صراخ الطفل يحتد ويخبو، يبدو كحشرجة أحياناً، يتحول إلى فحيح، فقدت شهيتي رغم جوعي،

لاحظت زوجتي أنني لم أعد راغباً في الطعام، بدت مستاءة، نهضت، مضت، احتد صراخ الطفل، قدَّرت أنها تضربه، هرولت إليها، كانت تجلده على مؤخرته بقسوة، نزعتها عنه، نهرتها:

ـ هل جننت. . .؟ ابتعدي عنه. .

ـ أنت تفسده. . لا بد من تخويفه. . كي يسكت.

ـ الضرب لن يسكته.

رفع عينيه الصغيرتين المبللتين بالدموع، المعبأتين بالأمل، غرزهما في عيني، بدوت له على ما أدركته ملاذه الأخير بعد أن فقد الأمان عند أمه، شُحنت بالغضب لأجله حتى فروة رأسي، التفتت كي أؤنب أمه لكنها كانت اختفت، انحنيت أقبّله، هدهدته، دغدغته، ظل يتابعني بعينيه المليئتين بالدموع، استحوذ على ذاتي شعور بالحنان دافق، لا شك أن الصغير يعاني معاناة شديدة دون أن ندركه.

عاود صراخه حاداً قوياً مؤلماً، مددت يدي أرفعه إلى صدري، أضمه إليه، أعبر له عن حبي الدافق، عن ألمي لأجله، شددت الطفل إلى أعلى، شيء ما شد الطفل أرضاً، علا صراخه وكأنه وخز، احتد، أفصحت ملامح وجه الصغير بوضوح عن معاناة شديدة ضارية، عن ألم حقيقي كبير، شددته ثانية كي أنهض به، شد ثانية إلى الأرض، نزعت عنه الغطاء، لم أصدق

عيني . . فركت عيني مراراً كي أتأكد، كان الطفل جبران مربوطاً من أحد قدميه بخرقة إلى خزانة الملابس، فككت القيد بأصابعي، رفعْته إلى صدري، تحسست موضع القيد من قدمه فوجدته دامياً متورماً، دس رأسه في عنقي، قبّلته، رفعت رأسه، مسحت عينيه ووجهه، احتواني في عينيه بحب، قالت أمه:

ـ سيحبو في طول البيت وعرضه . . يكسر هذه . . يتلف تلك . .

ـ إن حباً فهو يحبو في بيته . . دعيه يفعل ما يريد . .

وضعته على الأرض، حباً إلى قطع الحلوى المنتثرة على الحصير يجمعها بينما ازدان وجهه الصغير بابتسامة رائعة، ومضى يمرح طليقاً مبتهجاً لا يلوي على شيء.

الزيتونة

الزيتونة

هدير الوحش الحديدي يمزق صمت الصباح الرطيب، الفزع يجتاح مزرعة الحاج مبروك فتخور الأبقار، تثغو الشياه، يصهل الجواد، ينبح الكلب الهرم، تقرقر الدجاجات، تطير الحمامات جماعة في اتجاه الأفق، تتساقط قطرات الندى من على غصون وريقات الأشجار، يُغمض الحاج مبروك عينيه، يتمتم في أسى.

ـ ليتني متّ قبل أن يحدث هذا..

تطيّب خاطره رغم نزف الألم، تلك الصبورة الودودة التي رافقته على مدى ثلاثين عاماً تقول:

ـ اصبر يا شائب.. الله غالب.

تمد يدها إليه بكوب الشاي، يصوّب نحو يدها نظرة رافضة، ترتدّ يدها بالكوب، تضعه في الصينية، تأوه، نهض اجتاز الحوش إلى الباب، تخطى العتبة، وقف في وسط المزرعة، اشتد هدير الوحش الحديدي، بدا ضخماً يشق الغبار صوب

جانب من السور الترابي العريض، يدكّه، يكوّمه، ينفتح عن مجرفة كبيرة تغرف كوم التراب، ترتفع، تستدير تفرغ التراب في صندوق شاحنة قريبة، تختبئ المجرفة الكبيرة في جوف الوحش الحديدي، يتقدم الوحش الحديدي ثانية، يدكّ جانباً آخر من السور الترابي، يكوّمه، دون أن يعبأ بجوقة طيور وحيوانات المزرعة، دون أن يكترث لأسى الحاج مبروك، يهدم ويهدم ويهدم، بينما يتراجع الحاج مبروك خطوات إلى حوش البيت، منهكاً كما لو كان الوحش يدكّ عظامه، يطحن سنوات الأمان والطمأنينة، يشوّه معالم سني الطفولة والصبا والرجولة والكهولة أيضاً، تتلاحق الصور البهية الفاتنة في ذهنه مستغيثة.

ـ مبروك كبر.. تجاوز السور طولاً.. انظري.

ـ قل ما شاء الله.. قل.. ما شاء الله.

هكذا تحاور أبواه في صباه ضُحى ذات يوم فيما كانا يحتسيان شاي الضُحى تحت ظل الزيتونة بجوار السور، السور.. السور.. فوق السور الترابي، في ضوء القمر، قضى معظم ليالي الصبا والشباب رفقة رفاق تلك الأيام القصية، يتسامرون، يحتسون الشاي، وربما تيسّر لهم تدخين لفافة تبغ في غفلة من الكبار، عبر السور أيضاً التقت عيناه عيني تلك الصبية الحلوة التي صارت رفيقة العمر فيما بعد، ومن خلال السور كم كانت اللقاءات بها بهيجة حميمة، وكم كانت الوشوشات دافئة بهية.

صورة كريهة اكتسحت كل تلك الصور الرائعة في ذهن الحاج مبروك، تجلّت مزعجة مقيتة:

ـ هذا قرار..

ـ أرفض..

ـ الطريق الجديد ضرورة..

ـ أرفض..

ـ ترفض..؟... ترفض..؟..

ـ نعم أرفض..

ـ أحذرك.. لا ترفض..

ـ أرفض أن يهدم السور..

ـ ترفض القرار.

ـ أرفض أن تؤخذ أرضي... أن يقتطع شريط من أرض المزرعة..

ـ تتعرض للعقوبة..

ـ أرفض أن تقتلع الزيتونة..

ـ سيعوضونك..

ـ أرفض.

ـ ابصم هنا..

ـ لن أفعل . .

أطبق جفنيه على الدموع التي نضحت بها جفناه، فالألم أكبر من أن تتّقيه شيخوخته بالصبر، والكارثة أشد من أن تجابه بجلد الرجال، والأقسى أن يقابل كل الناس محنته ببرود وكأن الذي يحدث لا يستحق أكثر من مط الشفاه، الحوقلة، اصطلاح «المصلحة العامة» وكفى، حتى ولده ذاك الذي ولد وترعرع في المزرعة، لعب تحت الزيتونة، جرى فوق السور، صار منهم، يرتدي لباس النصارى، يقيم في المدينة، يقتات المعلبات، يحاول كأنه طرف آخر أن يقنعه:

ـ الطريق الجديد . . لا بد أن يخترق المزرعة . .

ـ خرّف .

ـ لا بد من وصل شرق المدينة بغربها .

ـ خرّف .

ـ مهندسون . مسّاحون . . درسوا المنطقة . . قدموا تقرير اللجنة . . اللجنة قررت . .

يقاطعه غضباً:

ـ أسكت . . أسكت .

الحصار يشتد وما تقرر لا بد أن ينفَّذ، والدنيا تضيق في عيني الحاج مبروك حتى يخالها في سعة خُرم إبرة، ورفْضه يكاد

يخبو في صقيع اللامبالاة من الآخرين، وتتأكد لديه حاجة شيخوخته إلى المهادنة.

ـ أقول لك.. أقول لك يا ولدي.. أمري لله.. فليهدموا السور.. ولكن.. شريطة ألا يقتلعوا الزيتونة.

ـ سيسخرون منا.. الزيتونة تقع في منتصف الطريق مباشرة.

ـ الزيتونة تقع في المزرعة.. الطريق الجديد هو الذي اخترق المزرعة إلى الزيتونة..

ـ على كل حال.. أُخطرنا رسمياً بالقرار وما علينا إلا أن نرضخ للأمر الواقع..

ـ لكنني أرفض.

ـ لا يهم.

استفزه، صرخ في وجهه:

ـ اخرج.. لا أريد أن أراك بعد الآن.

الوحش الحديدي يقترب من أحد جوانب السور الترابي المحاذي للبيت، يشتد الهدير، يندفع الحاج مبروك إلى وسط المزرعة، الوحش الحديدي يدكّ جانب السور الترابي بقوة، يصيّره رماداً، ينفتح عن المجرفة الكبيرة، تغترف الكوم الترابي المسحوق، تفرغه في صندوق الشاحنة، يطوف الحاج مبروك بعينين دامعتين على امتداد موقع السور، لا عشب، لا خضرة، شريط من الأرض الترابية المبقورة تبدو كثعبان صحراوي كريه،

الزيتونة ستُقتلع والطريق الجديد سيخترق المزرعة، ويمتد شريط أسود عريض عبر الحقول الخضراء وكأنه السرطان يسري موتاً في خلايا الحياة، وتغرب عن الحقول كل سني الخير والنماء إذا ما توالى زحف الطوب والقطران على هذا النحو المقيت.

هدر الوحش الحديدي هديراً شديداً، استدار، مضى وسط الحقول تتبعه الشاحنة إلى الطريق الرئيسي، عاد الحاج مبروك إلى حجرته خائر القوى، استلقى على النطع، سحب الوسادة من تحت رأسه، وضعها على وجهه، استسلم مرهقاً لإغفاءة، لكنه ما لبث حتى نهض مفزوعاً فاحتوته رفيقة العمر في عينيها الكسيرتين:

ـ بمنشار آلي... ينشرون ساق الزيتونة..

ويحتدّ صوت المنشار حيناً، يخفت حيناً آخر، توافقا مع شدة مقاومة الزيتونة من أجل الحياة، لكن المقاومة تشتد وتشتد، وصوت المنشار الآلي يحتدّ أكثر ويحتد، يقتحم عليه أحزانه فيفجرها غضباً دافقاً تصيّره اللحظة إرادة عارمة من أجل الحياة، النماء، العطاء، فينطلق الحاج مبروك صوب الزيتونة في وسط المزرعة، تصدّه صرخات العمال المدويّة:

ـ ابتعد. ابتعد..

أمام عينيه تتداخل الرؤى، تتجمد في عروقه الدماء، تنغرز قدماه في تراب الأرض، تتهاوى الزيتونة الضخمة قتيلة، تقتلعه رياح التهاوي من مكانه تطيح به أرضاً، تراب الأرض يغمر عينيه

وفمه، كل وجهه، وريقات الزيتونة بدت كما غار يتوّج هامته، ضجيج هائل يتداخل، الضجيج يتباعد، يتباعد، والرجل يغيب، يغيب بعيداً.

ـ مات.. مات..

مفجوعة تصرخ رفيقة العمر.

ـ فقد وعيه..

أجاب أحد الرجال، وأفاق الحاج مبروك وقد تحلّق حوله نفر من جيرانه المزارعين يمسح أحدهم جبينه بخرقة مبللة بالماء البارد، ثانٍ يتلو سورة من القرآن، ثالث يحتضنه في ودّ، ورفيقة العمر تحتويه في عينيها الكسيرتين، والجرح ينزف في داخله ألماً مأساوياً.

همس، فبدا الصوت حشرجة مفجعة:

ـ قطعوا الزيتونة.. الزيتونة اغتيلت..

قال أحدهم:

ـ لا يأس من رحمة الله..

قال ثان:

ـ تحلّ بأخلاق المؤمن.

قال ثالث:

ـ تذرّع بالصبر..

قال رابع:

ـ إن الله يختبر إيمانك . .

قوة خارقة تفجرت في كيانه، صرخ فيهم:

ـ كفى . . كفى . .

صمتوا جميعاً، نهض واقفاً وفي عينيه بريق، حاولوا أن يقعدوه، تخلص منهم بقوة، انطلق إلى الزيتونة الممدة على التراب قتيلة، قبّل بشفتين عاشقتين وريقاتها، غصونها، ساقها، أيدي الرجال تشده إلى الخلف، يستقيم واقفاً يهمس أحد الرجال لآخر:

ـ جنّ الرجل، لا حول ولا قوة إلا بالله.

يتفحص الحاج مبروك عيون الرجال، يشتد ذاك البريق في عينيه، يقول:

ـ أنصتوا . . من أحبني فعلاً . . من تألم لأجلي حقيقة . . فليساعدني.

تداخلت أصواتهم تجيبه في هدير أضاء ملامح وجهه بالأمل:

ـ من أجلك سنفعل ما تريد.

قال:

ـ فليحضر كل منكم ما عنده . . معول . . رفش . . أي شيء . . الزيتونة لن تموت . .

وتحت لفح يوم صار قائظاً من أيام مارس تناوب الرجال

العمل، فريق يحفر الأرض مهيئاً الموقع الجديدة للزيتونة، فريق ينبش الأرض بدقة خبيرة حتى لا تتأذى جذور الزيتونة أو يعوق استخلاص القرمة من الأرض عائق، والأزناد السمراء القوية تنضح عرقاً، تتدفق جهداً وحيوية، بيدين هرمتين يسهم الحاج مبروك مع الرجال في صنع الحياة حيناً، يتابع بعينين جذلتين معجزة بعث الحياة في الزيتونة القتيلة حيناً آخر، ورفيقة العمر تناول الرجال بين الحين والحين أكواب الشاي فيحتسونها في سعادة.

استخلصت القرمة بمهارة من الأرض، حملت محوطة بالحب إلى الموقع الجديد، غُرست دون أن يتأذى منها جذر، غُطيت بالتراب في رفق، سقيت، تصافحت العيون في مودة، اغرورقت عينا الحاج مبروك بالدموع فيما تراءت له الزيتونة تضرب بجذورها في أعماق الأرض، تمتد بفروعها الخضراء إلى آفاق بعيدة.. فتعطي وتعطي وتغرق في العطاء فيما تتنفس المزرعة السكينة والأمان، فتعود حمامات المزرعة والدجاجات إلى نبش الأرض في طمأنينة بحثاً عن الغذاء، وتتشاغل الشياه والأبقار بالرعي والاجترار، ويربض الكلب في المزرعة حارساً لا تخور له قوى، ويدقّ الجواد الأرض جذلاً مزهواً بالحاج مبروك الذي استحق فعلاً أن يكون فارسه..

حب

تلك الأيام القصية، ظلت على مدى سنوات العمر حاضرة في ذهني لا تبارحني أبداً، ومن ثمة فإن شيئاً في داخلي ظل يدمى على نحو مؤلم، حتى إنه كثيراً ما يستحوذ على ذاتي فأنصرف إليه مخدّراً أعاني وجعاً يأبى أن ينتهي، فإذا ما أشرق في عيني ذاك الوجه الفاتن بعينين سوداوين كبيرتين وشفتين متوردتين منفرجتين أبداً عن ابتسامة ودودة سمحة مرصعة بحبات البرد، تعبق في أجواء روحي تلك الأنفاس الحميمة الزكية حضوراً رائعاً لحب حقيقي ظل يحوطني بدفق سخي من مشاعر الأمان والطمأنينة والسلام كأنما كان يحدث في تلك الأيام التي صارت قصية إنما هو يحدث في توِّي، بكل تلك التفاصيل التي ربما تبدو أحياناً غير ذات جدوى، لكنها إذا ما تم التمعن في المدلول القابع في ثناياها بدت تفاصيل ذات جدوى حقيقية.

ـ أنت.

قالت لي ذات يوم.

ـ لا تكاد تفهم.

ثم اندفعت متعثرة خارج غرفتي دون أن تتيح لي فرصة التفكير فيما قالته، علّني كنت أحاورها، رغم كوني لا أعتقد أنني كنت سأفعل، ففي حضور عينيها أظل مشدوداً لذلك الدفق السخي من المشاعر، أحدق في العينين السوداوين الكبيرتين كمصعوق فقد القدرة على النطق والحركة، لكنني على أية حال أعي جيداً أنني أحبها كثيراً وأكاد أفهم أنها أيضاً ربما كانت تحبني كثيراً.

ـ لا.. لا بد أن أهتم به شخصياً.

هكذا كانت تقول لأمي، فيما كانت أمي تحتضنها بعينين عارفتين بالفضل، لاهجتين بالثناء والمودة، خبيرتين بخفقات القلب البكر، لكنها هي، كانت لبقة تجد دائماً ما تبرر به حرصها والاهتمام الفائق بشؤوني.

ـ رسول الله أوصى على السابع جار.. فما بالك إذا كانت الدار قبالة الدار..

وتتضاحكان، أمي وهي، وكانت أحاديث المودة هذه تسعدني كثيراً أسترق السمع إليها، فهي في الغالب تعنيني.

لا تكاد تغادر دارنا، تنهض بكل أعباء البيت، تغسل ثيابي، تكويها، تطويها، تصفها في خزانة الملابس، تكنس غرفتي، ترتب كتبي المبعثرة حيثما اتفق، ترتب فراشي، أحياناً تقوم هي

بطهي الطعام، لكنها كثيراً ما تعاتبني في مودة:

ـ الفوضى في غرفتك تزعجني.. لا بد أن تتعود النظام..

أمي ذات مرة علقت على الملاحظة متضاحكة:

ـ لست أدري يا ولدي أية امرأة يمكن أن تقبل فوضاك هذه.

وتحولت بعينين متفحصتين إلى عينيها، أغمضت هي العينين السوداوين الكبيرتين، واحمرت وجنتاها، لكن الشفتين المتوردتين أبداً ما لبثتا حتى انفرجتا عن ابتسامة عذبة.

كانت بالتأكيد تعني ما تفعل، كنت أحس وأؤمن أيضاً أن الحب لا يحتاج إلى إقرار من صاحب الشأن، ابتسامة عذبة تكفي، نظرة ولهى يمكن أن تقول كل ما قيل عن الحب في طرفة عين، خفقة حب حرّى تتجاوب أصداؤها في أعماق الطرف الآخر عشقاً لا ينتهي، تفاصيل صغيرة، لا تستخدم الكلام، تكون في الغالب أروع وأبلغ وأجمل.

تحبني إذن، أحبها بالتأكيد، لكنها تماماً كما كانت تقول عنها أمي، خجولة هي، حريصة، رزينة، تخشى دائماً أن تكون في غرفتي أثناء وجودي، وحتى إن فعلت فللحظة، لبرهة قصيرة، لا تبيح أكثر من التحية، لا تستزرع الظنون والشكوك والوشوشات.

ذات مرة حاولت أن أستبقيها في غرفتي علني أستطيع أن أستخدم لغة الكلام أنطق بكلمة واحدة:

ـ أحبك.

كانت في وسط الوحش مع أمي، ناديتها بصوت مشحون بالانفعالات رغم كل محاولات السيطرة على ذاتي، جاءت، وقفت في وسط الغرفة، احتوتني في العينين السوداوين الكبيرتين، تيبس حلقي، اعتراني ذلك الدفق السخي من المشاعر، تجاوزت اللحظة، البرهة القصيرة التي لا تتيح شيئاً، فزعت على ما يبدو:

ـ نعم..؟!

كانت تستنسخ لي المحاضرات، بعض الكلمات كتبت بخط غير مقروء، قلت متلعثماً:

ـ تعالي.

تقدمت، أشرت بيد مرتعشة إلى كلمة غير واضحة، قلت:

ـ لم أستطع أن أقرأ هذه..!

وشئت أن أستطرد فأشير إلى كل الكلمات غير المقروءة حتى نقوم بتصحيحها سوياً، لكنها التقطت كراس المحاضرات من يدي وسمعتها تقول فيما كانت تتخطى عتبة غرفتي إلى السقيفة:

ـ سأقرأ كل المحاضرة. وأعيد كتابة الكلمات غير الواضحة.

لكنها كانت تحبني، بالتأكيد كانت تفعل، كل ما يحدث كان يؤكد هذا المعنى الرائع، وكنت أحبها، وكنت أحلم بها كثيراً،

عاشقة في كنف عاشق، يعيشان أسطورة الحب العظيم في بيت صغير مشمول بفوضى تقاومها هي بالعتاب الودود:

ـ عندما تنتهي من قراءة هذا الكتاب.. ضعه في خزانة الكتب.. لا ترمه تحت السرير.

ـ ضع جواربك القذرة في سلة الملابس في الحمام، لا تبعثرها تحت الكراسي.. هه.. تحتجّ أيضاً:

ـ أووه.. زيارة قصيرة لأسرتي.. أعود فأجد البيت على هذا الحال.

أغرق في عينيها السوداوين الكبيرتين، ألثم الشفتين المتوهجتين، يصير العتاب غزلاً حلواً، يذوب الاحتجاج في دفق المشاعر، أذوب أنا، تذوب هي.

ـ أنتِ ذات يوم أغمضتِ هاتين العينين الحلوتين، واحمرت وجنتاك، فيما انفرجت هاتان الشفتان المزروعتان حول حبات البرد عن ابتسامة عذبة تفصح عن حب كبير، يعني أنك قبلتني كما أنا.

ترفع عينين جميلتين متسائلتين إلى عيني، أستطرد:

ـ حدث هذا عندما تساءلت أمي ذات يوم..

تقاطعني همساً:

ـ أية امرأة يا ولدي تقبل فوضاك هذه؟!

تدس رأسها في عنقي تهمس:

ـ إنك حبي.. إنك قدري.

لا بد أن أصيّر كل الأحلام واقعاً، قلت في خاطري، لا بد أن أقدم على الزواج، أمي أيضاً كثيراً ما تلمّح:

ـ لو كان الله رزقني ابنة لما تمنيت إلا أن تكون هي..

ـ ليتنا يا ولدي نقْدم، فنستبقيها في بيتنا على الدوام.

هكذا قررت، لكنني رأيت أن أخبرها، اغتنمت فرصة انشغال أمي ذات يوم، قاومت ذلك الدفق السخي من المشاعر، ناديتها، جاءت، قبضت على ترددي، استعدتُ قدرتي على الكلام، هربت بعيني من عينيها، قلت في ثبات:

ـ أريد أن أقول لك شيئاً.

قالت:

ـ أنا.. أيضاً..

صدق حدسي، تماماً كما أحبها تحبني، اعتراني ذلك الدفق السخي من المشاعر، فقدت قدرتي على النطق، شئت أن أقول ما كنت أنوي أن أقوله، لم أستطع، قالت هي:

ـ هه.. قل..

عجزت بعد معاناة، نطقت:

ـ لا.. قولي.. أنت..

سكتت، ران الصمت لحظات، احتوتني في عينيها السوداوين الكبيرتين، قالت:

ـ أنت تعلم كم أحبك..

ـ ....

ـ أكثر من كل الناس..

ـ ...

ـ ليست لي صديقات ولا أخوة..

ـ ...

ـ أنت كل عالمي..

ـ ...

ـ أبي أيضاً وأمي يحبانك.. يحترمانك.

ـ ...

ـ يضعانك في موقع الابن الغالي منهما.

ـ ...

ـ لكل هذا أود أن تزور أبي..

قلت مشدوها:

ـ سأفعل..

قالت:

ـ أم أنور ستزورنا غداً وأخشى أن يرفض أبي.

ـ . . .

ـ أمي أيضاً قد ترفض.

تهاويت على حافة السرير، تداخلت المرئيات أمام عيني، ضجيج هائل في رأسي، العينان السوداوان الكبيرتان تقتربان حتى تكادا أن تخترقا عيني، جاحظتان تبدوان، تبتعدان، تتباعدان، الشفتان المتوهجتان تصليان مشاعري ناراً، تلهبان عروقي بدماء حارة متدفقة، شيء في داخلي ينبت دامياً ويظل يدمى على نحو مؤلم، أعاني فأكاد أغيب، لكنني أتمالك زمام أمري، بصعوبة فعلت، سمعتها تقول:

ـ لا يمكن أن يقنعهما سواك.

صيّرتني حطاماً عاجزاً عن فعل أي شيء، أحدق في العينين السوداوين بذهول، لا أكاد أصدق أن ما حدث قد حدث فعلاً، أتساءل:

ـ وهل تحبين أنور؟!

تجيب جَذْلى في فرح طفولي:

ـ كثيراً. . ألم أقل لك؟

تتساءل:

ـ ماذا كنت تريد أن تقول أنت؟

أجيب:

ـ لا شيء..

تصمت، ثم:

ـ ستزور أبي إذن.

أبتسم في مرارة، أحشرج همساً:

ـ أجل.. سأفعل. مبروك..

....

....

وأفعل.

الجـرذ

الجـرذ

القرية كانت وادعة، الحياة رتيبة نمطية تبدأ بعد شروق شمس اليوم، موظفون صغار ينوءون بالتثاؤب ثقلى يجرون الخُطا صوب مكاتبهم، صغار التجار بعيون ذكية متلصصة تبحث عن صفقة، تلاميذ بحقائب مدرسية يتقافزون متفائلين في سباق مع دقات جرس المدرسة وتحية العلم.

الشارع الكبير المترب يشق القرية إلى نصفين وتصطف على جانبيه محال تجارية متواضعة وبيوت سكنية غير متجانسة بينما يبدو مقهى القرية معلماً في طور النمو يلجأ إليه مواطنو القرية للعب الورق متحلقين على الكراسي الخشبية العتيقة حول طاولة أو أكثر وفي الليالي القمرية للسهر واحتساء الشاي والحديث في كل شيء بهيج ذي علاقة بالصبايا وربما شؤون القرية. .

يحدث أحياناً أن يضج الشارع الكبير المترب بالمرح عندما يتصايح التلاميذ عائدين من المدرسة متبادلين في براءة المزاح متقاذفين كرة قماشية، لكن الشارع يميل عموماً شأن القرية دائماً

إلى السكون والدعة بل إن الصمت المطبق قد يجثم على القرية تماماً في أيام الصيف الملتهبة شديدة الحرارة إذ يختفي مواطنو القرية في بيوتهم ودكاكينهم فمياه البئر الوحيدة في القرية شحيحة ولا يجوز أن تستنزف في ترطيب الشارع المترب أو المبالغة في الاغتسال وغير ذلك.

«فقي» القرية كان قد تحدث إليهم مراراً

ـ الماء هو الحياة.. حرصكم على الماء يعني حرصكم على حياتكم.

ـ هذه من غير فقي!!

هكذا كان تعليق مواطني القرية على قول «الفقي» في غيابه فهم لا يجرأون على القول في وجوده ذلك لأن الرجل يحظى منهم بكل التقدير والإكبار والحاجة إلى تقنين استهلاك الماء قرار جماعي ولا يضيف إليه قول الفقي أكثر من البركة شيئاً.

يحدث أحياناً أن يخرق نفر من مواطني القرية القرار فيغترف من البئر قليلاً من الماء يرش به الشارع الكبير المترب في الأيام القائظة ترطيباً للأجواء وتسكيناً للغبار وترويحاً عن أولئك الذين يلجأون إلى مقهى القرية مع غروب الشمس بعد يوم حار طويل، فيطال رذاذ الماء «صابر» تذروه الرياح نادراً ويُذرى عمداً غالباً من ممازح شاء أن يوقظ «صابر» النائم على الرصيف متوسداً ذراعه مستغرقاً في عالمه لوحده.

يُعرف «صابر» في القرية بأنه مواطن أصيل أباً عن جد ذلك لأن أسرته عريقة توارثت الحياة في القرية على مدى سنوات وتنعمت بمردود عقارات وتجارة واسعة وكان من أفراد أسرته وجهاء وأعيان لكن الزمن أتى على كل شيء إلا «صابر» الذي يمتاز بقوة عضلية تجعله موضع اعتبار من لا يعتبر أصالة الرجل أو يحاول أن يستخف به، أيضاً قوة «صابر» العضلية مكنته من العمل عتالاً يلجأ إليه أصحاب الدكاكين مقابل أجر بسيط ينفقه في يومه دون اكتراث برزق اليوم التالي.

عيب «صابر» أن الله حباه بنعمة «الصمم»، فالرجل أصم لا يسمع الأمر الذي عرضه لكثير من الحوادث التي كادت أن تفقده حياته فلا يأبه حتى اعتقد مواطنو القرية أن الحياة والموت عند «صابر» سيان ولعل هذا ما حدث تحديداً عندما انطلق البرّاح ذلك اليوم في الشارع الكبير المترب معلناً في صوت متهدج عن الغول الذي اغتصب البئر محذراً كل مواطني القرية من الخطر الساكن في عمق الماء.

ـ لا تقتربوا من البئر!!

ساد الهرج الشارع الكبير المترب، رجال ونساء وأطفال، عيون سكنها الذعر، شفاه تيبست، وجوه كلحت، سيقان خارت، الحزن أطبق على كل مواطني القرية، فالخوف من الغول يرهب أشجع الفتيان ويحول دونهم والبئر نبع الحياة في القرية الوادعة.

رغم أن اليوم كان قائظاً إلا أن «صابر» كان مستغرقاً في نوم عميق على الرصيف متوسداً ذراعه غائباً تماماً عن كل شيء؛ نداء البرّاح، ضجيج الرجال والنساء والأطفال، التحذيرات المتصاعدة بالابتعاد عن البئر، لذا، فهو لم يرهبه الخوف ولم يعتر وجدانه الحزن، فشيء مما يقال همساً وجهراً لم يسمعه.

قال أحدهم:

ـ رأيت الحبل من البئر يعلو ويهبط!!

قال آخر:

ـ رأيت الدلو جافاً يخرج من عمق البئر دون وِرد!!

أضاف مذعور:

ـ بل رأيت أن يداً سوداء طويلة قبيحة تسحب الدلو بشدة إلى داخل البئر!

قال البراح:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. إنني أخشى أن يكون الغول قد دق عنق غافل جاء يرد البئر عطشاً ليرتوي!!

صدح صوت جهوري تعود مواطنو القرية سماعه:

ـ السلام عليكم.

رد مواطنو القرية:

ـ وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

كان «الفقي» قد حضر فانتعش الأمل وتراجع الخوف وتبدد الحزن وتعلقت العيون بـ«الفقي» تنصت وقد ساد الصمت المكان.

قال «الفقي» بصوت عال:

ـ لا تخافوا... يحدث أحياناً أن يسكن غول بئراً أو يسكن نفر من الجن بيتاً.. الشياطين أيضاً تفعل ذات الشيء.

حوقل مواطنو القرية وبسملوا واستعاذوا بالله من شر الشيطان الرجيم، بدا أن الأمل قد تقهقر، لاح الخوف في العيون، قد يطبق الحزن مجدداً على مواطني القرية، فالخوف يغتال الأمل وينبت الحزن.

استطرد «الفقي» بصوت قوي:

ـ الأمر لا يخيف... إن الله لطيف بعباده..

صرخ أحد الفتيان:

ـ كفانا مواعظ.. ما العمل؟!

استهجن مواطنو القرية اعتراض الفتى حديث «الفقي» رغم ما لقيه من استحسان غير معلن فاقتاده أقرانه بعيداً عن الفقي الذي أضاف غاضباً:

ـ إن المعمول لوجه الله.. منذ سمعت بأمر الغول اعتكفت وتمكنت بعد أن قرأت وقرأت وقرأت من إعداد هذا الحجاب!!

أخرج «الفقي» ورقة مطوية بدا على البائن منها رسوم وحروف زعفرانية صفراء شخصت إليها كل العيون فلوّح بها مغمضاً عينيه ليكتسح الخوف حتى الفتيان.

قال «الفقي»:

ـ هذا الحجاب سيحرق الغول، فليأخذه أحدكم ويرمي به في قعر البئر.

وجم مواطنو القرية.. إن الحجاب قد يكون ذا جدوى وقد لا يكون.. أيضاً قد يكلف الفاعل حياته.. إن الأمر يتطلب الفداء.

قال رجل مخاطباً «الفقي»:

ـ حسناً فعلت يا سيدي.. هيا أرمه أنت في قعر البئر.. أحرق الغول... توكل.. فأنت الأقدر والأعلم والأجدر!!

فوجئ الفقي بالاقتراح الذي قوبل بالاستحسان من مواطني القرية لكنه تحصن بالصمت والاستغراق في التفكير ثم نطق:

ـ هذا غير ممكن... إن الأسياد يرفضون.. شخص آخر يجب أن يقوم بالعمل.

استيقظ «صابر» الغائب تماماً عن الإنصات فشمس اليوم القائظ لفحت جسده ويبست شفتيه عطشاً وأصابت حلقه بحرقة موجعة لكن الفضول أدركه عندما رأى مواطني القرية يتحلقون حول «الفقي» حينها قبض على عصاه ونهض فاندس بين مواطنيه

محاولاً أن يستجلي بعينيه ما يحدث إلا أن المحاولة خابت فالقول بالغول يطرق أذنيه شأن الآخرين لكن الصمم يحول بينه وبين فهم القول.

تأكد «صابر» أن ثمة أمر خطير دعا إلى تجمع غير مسبوق وإلى حضور «الفقي» وإلى ما تضج به القرية من لغط وصراخ ونقاش وهمس يتناهى إليه من حيث تكومت نساء القرية على الأرض بينما صباياها وقوفاً ينصتن إلا أن العطش قاتل وشفتاه تيبستا أكثر، حرقة حلقه تشتد ووهج الشمس يلفح جسده واليوم القائظ يستوجب المجابهة.

مضى قابضاً على عصاه صوب البئر وعندما فطن مواطنو القرية إلى أن «صابر» قد توجه صوب البئر تعالت صرخاتهم يحذرونه:

ـ الغول يا «صابر»... احذر يا «صابر»!!

مواطنون آخرون صمتوا، لم يحذروا «صابر»، ربما فكروا باختبار ما يعلن عنه البرّاح، ربما تمادوا في الإثم فشاؤوا أن يجربوا صدق ما ادعاه «الفقي»، ربما هان عليهم «صابر» فتركوه يهرع إلى حتفه ليدق الغول عنقه، «صابر» لم يعبأ، مضى نحو البئر بخطوات واثقة وعصا غليظة، اقترب أكثر، أقترح «الفقي» أن يتناول أحد الفتيان الحجاب ويلحق بـ«صابر» فيعطيه إياه ليحرق به الغول، لم يلاق اقتراح «الفقي» تجاوباً ذلك لأن الأمر يتطلب نصف تضحية على الأقل أي نصف ميتة ربما.

جحظت العيون تراقب في خوف «صابر» وقد قبضت يسراه على عصاه ويمناه على الحبل تحركه بقوة لإنزال الدلو إلى قاع البئر لكنه ما لبث حتى نزع يده عن الحبل وشد قامته منتصباً يقهقه وقد هوى بعصاه ضارباً في البئر بعنف.

صرخ مواطنو القرية بينما كان «الفقي» مشدوهاً يتابع بعينين بدتا عليمتين ذكيتين:

ـ مجنون.. أهبل.. «صابر» يقاتل الغول.. الغول سيدق عنقه!!

لم يعبأ «صابر»، استرد عصاه، ضربة واحدة شديدة تكفي، وضع عصاه جانباً، اتكأ على البئر قليلاً، انتصب واقفاً وقد أمسك بشيء، رماه متأففاً بحذاء البئر، أمسك بكلتا يديه الحبل، ملأ الدلو بالماء، أغدق منه على شفتيه ورأسه وجسده، توضأ، تطهر، التفت فبصق على الشيء الملقى إلى جوار البئر، التقط عصاه وتحرك نحو مواطنيه تدفق مواطنو القرية صوب البئر بقوة الفضول الدافق متقدمين «الفقي» المذهول ليفاجأوا بجرذ كبير في حجم أرنب بري مقتولاً مكسواً بدم أسود مرمياً بحذاء البئر، صرخوا جماعة:

ـ كذب البرّاح.. لم يكن غولاً.. لم يكن غولاً على الإطلاق.. كان مجرد جرذ!!

عرس ليلى

كان قصير القامة، متين البدن، جاد التقاطيع، ذا عينين ذكيتين، يحدث أحياناً أن تخال ملامح وجهه تشرق بابتسامة، يتحدث قليلاً، ينصت كثيراً، يقاطعك إن أنت استرسلت في حديث غير ذي معنى:

ـ المفيد؟!

كان حيوياً مثابراً دقيقاً حريصاً على القيام بتمريناته الرياضية في مواعيد ثابتة محددة الأمر الذي قد لا يتوافق وسنوات عمره الستين. عندما تهاتفه فتخبره إنك ترغب في زيارته يجيئك رده قوياً حاسماً:

ـ متى تجيء؟.. متى تغادر؟!

أخبرته ذات مرة أن تحديد مدة الزيارة لا يروق زائريه ثم إنه لا يبدو لائقاً، اعترض بشدة، فالوقت عمر والعمر يجب أن يستثمر حتى آخر لحظة فيما يفيد.

كان يعمل محاسباً وعندما تقودك صداقتك المقننة به إلى الانزواء في ركن مكتبه انتظاراً، تكاد تخاله إحدى آلات المكتب، حاسبة، كاتبة، رقماً صعباً غير ذي جذر.

عيناه الذكيتان تبدوان في الغالب زجاجيتين لا يمكن أن تخترقا إلى جوانيته، تقاومان بشراسة إن أنت حاولت النفاذ إلى الإنسان فيه ثم يصرفانك بدقة شديدة ولباقة محسوبة صوب أمر آخر.

ذات يوم فاجأني:

ـ ليلى!!

نفث دخان لفافته وعيناه شاخصتان إلى سقف المكتب وإن بدتا مصوبتان نحوي، ملامح وجهه جامدة باستثناء صدغيه اللذين انتظما في حركة تنبئ عن توتره.

تساءلت:

ـ ليلى؟!

تأوه:

ـ ليلى!!

وبدت ليلى كما تبدو دوماً في خيالي، ليست كما البنات، فليلى فتاة غير كل الفتيات، ليلى وجود عبق بكل ألوان العطر، ملائكي، شفاف، هي، ذات العشرين بملامح طفلة، تنصت إليك فتبدو كما لو كانت تصلي، تتحدث فتهمس حتى إنك

تقترب من الثغر الكرزي لتلتقط الكلمات فيغشاك خدر لذيذ، تلجأ للعينين الحالمتين، تستقر في الأعماق، تنتفض فيك رعشة الفرح فتسكن كل الأمواج، يخفت الهدير، يركع البحر صاغراً، تصفو السماء، تتلألأ كل النجوم، تضاء كل الآفاق، يبدو الكون رحباً، يمتزج الفرح بالمرح، تحلو كل الأيام.

تساءلت مرة أخرى:

ـ ليلى!! ماذا حدث؟!

أجاب:

ـ عادني عرس ليلى..

ولم يكمل.

عندما ترحل بعينيك الشرهتين عبر تضاريس القوام الطري الدقيق يختال في الثوب الأبيض محمولاً على قدمين صغيرتين لا يكادان يلامسان الأرض، يغشاك خفر العذارى ليلة عرس ويعاودك حلم لذيذ فتغمض عينيك مستسلماً للفرح حتى تفيق على زغاريد الأبكار في توق بهيج إلى الحب والنماء.

ليلى كانت تحبه كثيراً، هو كان يحبها أكثر، لم يحدث أن أخبرني، لكنه كان يفعل، فالبيت عنده ليلى، البنات الأخريات أصغر من أن يدركن، والأم غائبة مغيبة، والبيت الكبير لولا ليلى بارد صامت مغمور بالوحشة والكآبة تطبق على كل أركانه ظلال رهبة مقيتة.

عندما كان يدعوني إلى البيت أدرك أن وجهها الطفولي الوديع يضيء كل أركانه المعتمة، وأن القوام الرشيق يتهادى في عفوية البكر وحيوية العشرين وأن شذاها سيعبق عطراً فواحاً فيغمر كل الأنحاء وأن ليلى ستقوم على خدمتنا في حب ينهار إزاء ليونته أشد الرجال تمنعاً ووقاراً.

كان يقول:

ـ هيا بنا إلى ليلى!

نادراً ما يقول:

ـ هيا بنا إلى البيت.

وهذه تعني أن ليلى غائبة.

زرعت عيني في عينيه، عيناه كانتا عينين بشريتين تفيضان دموعاً وضعفاً وحزناً، يطبق جفنيه فتنساب الدموع على خديه براحة يمناه يزيحها، أنفذ عبر عينيه المستسلمتين إلى الإنسان فيه، تبدو جوانيته جلية غير مغلفة بالفطنة والدقة والذكاء الحذر.

بدا متحفزاً للحديث:

ـ تلك الليلة لا يمكن أن تمحى من ذاكرتي بكل تفاصيلها الصغيرة، كانت كما لو كانت ليلة القدر، كنت فرحاً لكنه الفرح المشوب بالحزن، عرس ليلى كان حلماً رائعاً وكان أيضاً حدثاً جللاً، فليلى هي البكر، هي أول من ناداني «بابا»، كانت تنام في حضني، تتغذى من يدي، أرقب نموها يوماً بيوم، تابعت تفوق

ليلى في كل مراحل التعليم، هي صديقتي فلا تخفي عني شيئاً، كانت هي وأنا نناقش كل الأمور، نتسامر، أداعبها، تمازحني، لكل هذا كان عرس ليلى حدثاً جللاً لكنه أيضاً كان حلم حياتي.

ليلة زفاف ليلى حاصرتني أبواق السيارات المزدانة بالشرائط و«البالونات» الملونة، جاؤوا يزفون ليلى، يأخذون ليلى إلى قاعة فندق، إلى حفل صاخب ثم إلى بيت آخر، إلى رجل آخر، إلى حياة أخرى.

زفت ليلى، تقاصت الزغاريد والمزامير والضجيج، قبعت وحيداً، أطبق الصمت على كل أركان البيت، تفحصت عيناي كل الأمكنة، كل ركن يروي حكاية رائعة، كل زاوية تتحدث عن ذكرى جميلة!!

صمت.

كان الرجل ينزف ألماً، كان يتضور حزناً، أشفقت عليه، شئت أن أنتزعه من الحالة، قلت:

ـ وأم ليلى.

جحظت عيناه، زفر زفرة تقذف لهباً، جاءت عفويتي طعنة حادة في جرح غائر، تململت كمن يعتذر دون أن أنطق بكلمة.

استطرد:

ـ تلك الليلة كانت ليلة قاسية، ليس لي إلاَّك عوناً، رفعت عيني إليه في عليائه ألوذ به، كانت السماء ملبدة، ظلام الليل

دامس، النجوم لا تتلألأ فيما كان القمر يبكي، لكنني ما لبثت حتى أغفيت مستسلماً للنوم شأن طفل، لم أعد أذكر كم استغرقت إغفاءتي إلا أنه عندما أيقظني الضجيج كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً، وكان القادم ليلى متوجة بثوب الزفاف الأبيض مرفوقة بالرجل الآخر محاطة بفتيات في عمر الزهور وصبايا فرحات ودفوف وأغان وزغاريد وعطور وحبور وفرح.

انتزعت ليلى ذراعها من ذراع الرجل الآخر وأقدمت طفلتي الرائعة تلقي برأسها الصغير على صدري، تحيط براحتيها الفواحتين وجهي، تقبلني وتبكي:

ـ لن يكون فرحي ما لم يكن فرحك.

تماسكت، مددت يدي فجذبت الرجل الآخر إلى صدري، احتضنتهما، اخترق صوتي جهورياً قوياً حاداً ضجيج الفتيات وزغاريد الصبايا ودقات الدفوف فجاب كل أركان البيت مدوياً:

ـ هو فرحي.. هو فرحك.. هو فرحه.

رفعت عيني إلى السماء فبدت صافية متألقة، النجوم تتلألأ والقمر يكفكف دموع الفرح غامراً كل الأمكنة بأضوائه الفضية الوضاءة، والله في عليائه يبارك دون شك عرس ليلى.

عاشق المدينة

ـ اربطوا الأحزمة.. امتنعوا عن التدخين.. الإقلاع بعد قليل.

استرخيت في مقعدي، أغمضت عيني، استسلمت تماماً لذاكرتي لا أنتقي من فيض حكاياها شيئاً بل تركتها تنهال تباعاً وافدة عبر وعار سنوات العمر القصية ومضات تدغدغ وجداني بعد كل سني الترحال والغربة.

وبدت هي كما يحدث دائماً في لحظات التذكار العبقة بكل المشاعر والأحاسيس المقموعة تتقدم كل الحكايا متألقة تخطو نحوي مزهوة بالعينين الخضراوين والشعر الغجري المنثور على الكتفين والوجه الوضاء الخمري السمح والحب البكر العفوي الدافق.

ـ ترحالك أمر محتوم.. لن أراك مرة أخرى... لن تراني ثانية... وداعاً.

وانحنت تبكي فتسابقت خصلات الشعر المنثور على الكتفين إلى الصدر تداعب النهدين النافرين في حنو، احتضنت كفاي الوجه الصغير المبلل بالدموع، رجوتها وردة أن تكف عن البكاء، نهضت، مضت، اكتسحني عجز قهري عن الفعل، لم أنطق بكلمة.

زنقة العويلة ذات الشارع الترابي القصير وبضعة البيوت الصغيرة البائدة ذات الألوان الكالحة، مشرعة الأبواب، محمية بالحب، فسكان زنقة العويلة أسرة واحدة، يتبادلون أطباق الطعام، يأكلون معاً، يتسامرون، يفرحون، يغضبون، يتعاركون، يتسامحون، حياة بسيطة وادعة رغم ضنك الفقر وشظف العيش، مزايا جذرت مشاعر الانتماء إلى زنقة العويلة شأن كل شوارع المدينة.

وتداعت تباعاً رؤى ذاك الزمن الموغل في البعد، بهية، موجعة، سخية بكل المشاعر العفوية البسيطة.

المدينة كانت صغيرة رائعة ذات شارع رئيسي واحد معبّد، بقية الشوارع الفرعية كانت في الغالب ترابية ذات حفر ومطبات ومجارٍ فوقية، يحتضنها شاطئ يبدو كما حدوة ذو نخيل وارف مثمر يمتد من عرجون الفل شرقاً حتى قاريونس غرباً.

وجوه المدينة مألوفة، معروفة، حميمة، تجوب الشوارع فتنعم بالطمأنينة والأمان، يحوطك الحب من كل الأنحاء، تتجاذبك التحايا، تغمرك البهجة والفرح.

تأرجحت، استقمت فزعاً، بحلقت من خلال النافذة، سحب كثيفة تغطي سماء المدينة، المطب انتزعني من أعماقي، تفحصت عيناي الركاب فكانوا بين مذعور وغير مبال.

ـ اربطوا الأحزمة.. امتنعوا عن التدخين، سنباشر هبوطنا بعد قليل.

كم كنت أتوق إلى بعد قليل هذه، سفكت في انتظارها كل دموعي، تجرعت كل أوجاعي، فلا أقسى من غياب العاشق عن المعشوق سنوات من القهر والذل والتجوال في مدن الآخرين، لكنني أعود إلى مدينتي، إلى عشقي، مخترقاً حواجز وهمي مندفعاً صوب مدينتي بعزيمة المشتاق الوله وقد أضنتني الغربة وهدني التعب، أتوق إلى كل تلك الوجوه الطيبة الحميمة الوديعة التي ربما افتقدتني حين غبت عنها ثم غيبتني فقد طال المدى.

* * *

ـ رقم جواز سفرك لا يبدو واضحاً.

ـ 954630.

تصفحه عدة مرات، ناولني إياه، مضيت إلى القاعة:

ـ حقيبة واحدة.

ـ نعم.

وجدتني في الساحة، صرخ رجل منادياً:

ـ سيارة أجرة رقم 13. . . راكب واحد.

سألني السائق:

ـ العنوان؟

ـ زنقة العويلة.

ـ نعم؟!

قال الرجل الذي كان نادى سيارة أجرة:

ـ حي رقم 7 مربع رقم 3 شارع رقم 15.

قال السائق:

ـ 15 ديناراً.

مددت يدي بالنقود، ناولني إيصالاً، ناول المنادي نسخة الإيصال، قال:

ـ إيصال رقم 34672.

انطلقت سيارة الأجرة صوب مدينتي، فتحت حقيبة يدي، تحسست أصابعي محتوياتها القليلة، أودعت جواز سفري بين وريقات قديمة، سحبت الدفتر الصغير حاضن رسائل وردة، قلبت صفحاته، لامست وردة يابسة كانت أهدتنيها وردة حبيبتي، تلاشى عطرها، جفت، تآكلت لكنني ظللت أخفيها بين صفحاته، كنت أخشى دائماً أن تسحق، أن تفنى، لكنها ظلت

باقية، أودعت الدفتر برفق داخل الحقيبة، تنبهت إلى أن السائق يتفحصني بفضول، أصابه حرج، قال:

ـ اليوم قائظ.

ـ درجة الحرارة 38.

ـ . . . . . .

ـ ربما تمطر.

سألته:

ـ كم تبعد المدينة؟

ـ أنت في المدينة. . أنت على عبد 2 كيلو متر من الحي رقم 7 المربع رقم 3 الشارع رقم 15.

لم تكن أبداً مدينتي الصغيرة الوادعة، كانت مدينة أخرى بطرق عريضة ذات اتجاهين وجسور عالية وشوارع فرعية معبدة ذات أرصفة، عمارات شاهقة، دارات حديثة، حدائق، أرتال سيارات، إيقاع سريع، ضجيج، الوجوه غير مألوفة، غير معروفة، ليست حميمة على الإطلاق.

توقف السائق:

ـ تفضل.

تفحصت المكان؛ زنقة العويلة لم تكن موجودة، الشارع

الترابي القصير غير موجود، البيوت الصغيرة البائدة ذات الألوان الكالحة. . . الأبواب المشرعة في انتظار عودتي. . .

صرخ السائق في ضيق:

ـ تفضل يا أستاذ!!

هبطت، وقفت حائراً أبحث عن زنقة العويلة، أتفحص وجوه المارة، لا أعرف أحداً، لا يعرفني أحد، انتابتني رغبة في البكاء، تمنيت أن أفعل، خشيت عيون المارة، توجست سخرية العابرين، تماسكت، لجأت إلى وردة حبيبتي كي تعود ذاكرتي فلم تحضر، غابت هي، غابت الأمكنة، توارت الوجوه الحميمة، فعل الزمن فعلته، راودني الندم، أقصيته، خطوت أمشي دون أن أدري إلى أين. . . بدا الجامع بمئذنته العتيقة ذات اللون الأبيض الناصع، سعيت إليه بخطوات نشطة جذلى، دهشت عندما رأيته يغفو على دكة الجامع متوسداً ذراعه قابضاً على عكازه بركبتيه، ثيابه رثة، لحيته كثة ملبدة، ابيض شعر رأسه، شدت التجاعيد وجهه فلم يبق منه إلا عينان غائرتان عمشتان وفم غائر.

كان صبياً يافعاً، صغاراً كنا نطارده، نلاحقه، نداعبه، نحاصره، نفاجئه:

ـ يا أسيادي.

يتوقف خاشعاً، يجيب:

ـ عليكم أنادي.

صار اسمه «يا أسيادي» ذلك لأنه كان غريباً عن زنقة العويلة وكان العجائز يعتقدون أنه عاشق معشوق مسكون بالحب، فتطعمه كل البيوت فيما يأوي إلى الجامع مساء للنوم.

ناديته:

ـ يا أسيادي.

راعني أن ينتفض وقد قبض على عكازه، أجاب:

ـ عليكم أنادي.

فرحت كثيراً، حدثه طويلاً عن زنقة العويلة، عن ذكريات تلك السنوات القصية، كان ينصت، شبح ابتسامة تعبر ملامح وجهه بين الفينة والأخرى.

سألته:

ـ لم أجد زنقة العويلة.. أين أهل زنقة العويلة؟!

أجاب:

ـ مات من مات ورحل من رحل.

خشيت أن أسأله عن وردة، لم يكن ملائماً أن أفعل ثم ما أدراه بها، ساد الصمت، ضاق صدري، تأبطت حقيبة يدي، حملت حقيبتي الأخرى، ناديته:

ـ يا أسيادي.

أجاب:

ـ عليكم أنادي.

ـ السلام عليكم.

لم يعبأ، اتكأ متوسداً ذراعه، أودع عكازه بين ركبتيه، أغمض عينيه وأغفى.

كنت عطشاً، تذكرت زير الجامع والماء البارد العذب، وجدته حيث هو في زاوية حوش الجامع المتربة يقوم فوق حجر صغير وقد أحاطته الأعشاب، خطر لي أن أزرع وردة، أزحت الأعشاب بأصابعي، نحتّ نقرة صغيرة، أخرجت الوردة من بين ثنايا دفتري، غرستها، أهلت عليها تراباً رطباً، سقيتها، ارتويت، زال عطشي، دبت الحياة في وريقات وردة، ذهلت، فركت عيني، عود وردة ينتصب، وردة تنمو، وريقات وردة تخضر، تزهر، عطر وردة يعبق، ينادي عابر:

ـ يا أسيادي.

أجيب بصوت قوي فرح:

ـ عليكم أنادي.

فهرس

الإهداء 5

كحل العين 7

الفراشة 19

الساعة 29

الحب في كل العيون 39

زيارة ولد الشيخ 49

الوجه الآخر 57

معاناة الطفل جبران 65

الزيتونة 73

حب 85

الجرذ 97

عرس ليلى 107

عاشق المدينة 115